عبد الوهاب مطاوع

الثمرة المرة

الدار المصرية اللبنانية

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: الثمرة المُرَّة.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة

الثمرة المُرَّة

عبدالوهاب مطاوع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

صدق الله العظيم

(الآية ١٢٤ / سورة النساء)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمـة

أعجبتني هذه الكلمات التي قرأتها في سياق حوار مثير للتأمل في قصة أمريكية قصيرة:

«قال الرجل الذي يبلغ من العمر 45 عاما ويعيش وحيداً بعد أن هجرته زوجته ورحلت مع صديق لها للطبيب النفسي الذي يعالجه:

- إنني أتألم.. أتذكر لسعة الغدر والخيانة فأبكي، أتذكر وحشة الليل ووحدتي فيه فأبكي، أخاف من الظلام وأشعر فيه بالضعف والملل والهوان، أستعيد الذكريات الجميلة فأتذكر أنها قد انقضت إلى غير رجعة ولن تعود مرة أخرى، فيزداد حزني وألمي، أريد أن أتخلص من هذا الألم وأرجع إلى حياتي السابقة..

فيقول له الطبيب في هدوء:

- ليس من المفيد لك أن «تبتسر» هذا الألم على الفور وتتخلص منه قبل أن يستكمل دورته الطبيعية ويزول تدريجيا مع الأيام، بل إنك في حاجة الآن لأن تقبل به كحقيقة من حقائق الحياة كما تقبل بغيره منها.

- أنا احتاج إلى الألم؟! إنني لا أحتاج إليه وإنما إلى البرء منه لأعيش حياتي وأواصل الطريق.

فيقول الطبيب لمريضه: لا أحد منا يحتاج إلى الألم بالمعنى الحرفي للعبارة، لكننا حين يصادفنا من أحداث الحياة ما يدعونا إلى التألم له لابد لنا أن نتألم، وأن نقبل بهذا الألم ونتوافق معه إلى أن يرحل عنا بسلام، ولو لم نفعل ذلك لحق لنا أن نشعر بالقلق على سلامة مشاعرنا وأجهزة استقبالنا، وقوانا العقلية، فالعقلاء والمتزنون نفسيا هم وحدهم الذين يتألمون لما يستحق أن يتألموا له، والمضطربون عقليا أو نفسيا هم وحدهم الذين لا يتألمون لأحداث الحياة المحزنة ولا يحزنون في مواضع الحزن ولا يفرحون في المناسبات المبهجة، لهذا فأنا أدعوك إلى أن تقبل بهذا الألم وتصبر عليه حتى تنقضي فترة حضانته الطبيعية لديك ثم يزول ببطء ويتلاشى كما تزول آلام جراح الجسد تدريجيا مع اضطراد الشفاء.

وكلما كانت إرادتنا قوية في التجاوز عن الآلام والأحزان وساعدنا أنفسنا على تقبلها وفهمها كلما تسارعت خطواتنا على طريق النجاة منها!».

هذا هو الحوار الذي توقفت أمامه واستعدت وأنا أقرأه ما سبق أن قرأته من قبل عن.. «حكمة الألم» في حياة الإنسان، وكيف أننا لا نعرف غالباً قيمة الأشياء إلا بأضدادها، فلا نعرف قيمة السعادة إلا قياسًا على نقيضها من التعاسة، ولا نعرف معنى الصحة إلا حين نمرض، ولا قيمة الوفاء إلا حين نصطدم بالغدر، ولا أهمية الصداقة المخلصة إلا حين يجابهنا العداء.. وهكذا.

..نعم لا أحد فينا يحتاج إلى الألم لكننا لا نعرف قيمة الأشياء غالبا للأسف إلا حين نتعامل مع أضدادها.

وفي هذا الكتاب قصص بعض البشر ممن عرفوا الألم وبثوا إليّ شكواهم منه، وحاولت قدر جهدي المحدود إرشادهم إلى طريق النجاة.. ولم أنكر خلال محاولتي لذلك أن الألم حقيقة إنسانية من حقائق الحياة لا سبيل أمامنا لإنكارها أو رفضها، وأن قصارى ما نستطيع أن نفعله أن ندرب أنفسنا على القبول به، ومحاولة ترويضه وسجنه في قفص حديدي صغير من الصبر والفهم والتجمل إلى أن ينصرف عنا هو بسلام ونستعيد عافيتنا منه!

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الثمرة المـُرَّة

ترددت كثيرا في الكتابة إليك، ثم استجمعت قواي أخيرا لأزيح عن كاهلي ما لا أطيقه، فأنا سيدة تزوجت منذ أكثر من ثلاثين سنة، من زميل لي في الدراسة بإحدى الكليات الجامعية، وكافحنا معا حتى بلغ كل منا درجة عالية في شركته. وخلال السنوات الأولى من زواجنا، اكتشفت عدم قدرة زوجي على الإنجاب وأنه لا أمل له فيه، وفكرت وقتها في الطلاق، لكنني انتهيت فيما بيني وبين نفسي إلى رفض الفكرة ورضيت بأقداري وتواءمت مع حياتي، وبعد 15 عاما من زواجنا، فكرت في أن أملأ فراغ حياتي بتربية طفلة من بنات أحد إخوتي، وعرضت على أخي ذلك فلم يعارض فيه ربما تقديرا لظروفي، وربما أملا في أن تحظى هذه الطفلة في بيتي بفرصة أفضل في الحياة لأنه مثقل بالأبناء والأعباء، وأنا وزوجي وحيدان، وبالفعل جاءت الطفلة إلى بيتنا وعمرها 4 سنوات، وملأت فراغ حياتنا بالفعل.. وأشعلت بيتنا حركة وصخبا وضجيجا.. وعرفنا مع مجيئها مشغوليات وهموما جديدة جميلة، كهموم الرعاية الصحية ومواعيد الأمصال الواقية من الأمراض.. الخ.

وأغرقنا هذه الطفلة الصغيرة بحبنا واهتمامنا أنا وزوجي، ولبينا لها كل احتياجاتها من ملابس ولعب ونزهات، ثم التحقت بالمدرسة فعرفنا مشاغل أخرى جديدة هي مشاغل المتابعة اليومية لدروسها، وواجباتها المدرسية.. وامتحاناتها الخ، وحصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق والتحقت بالمدرسة الإعدادية، وواصلت تفوقها حتى السنة الثالثة من هذه المرحلة، ثم بدأت المتاعب من ناحيتها لأول مرة، فلقد أسرف زوجي في تدليلها والاستجابة لكل مطالبها على خلاف رغبتي في ذلك، فبدأت الابنة «تشعر» بنفسها شعورا مغالى فيه، وبدأت تتعامل مع مدرسيها بتعال وعدم احترام، كما راحت تتباهى أمام زميلاتها بالمدرسة بأن كل ملابسها مستوردة من الخارج وغالية الثمن الخ.. ثم بدأت تطلب دروساً خصوصية في كثير من المواد الدراسية، حتى انتهى بنا الحال إلى إحضار مدرسين لها في كل المواد، ناهيك عن مطالبها المستمرة من النقود للرحلات والنزهة مع الصديقات، وزوجي لا يعترض ولا يراجع، وإنما يستجيب على طول الخط، ويخفي عني ما يستطيع اخفاءه من مشاكل البنت في المدرسة، لكيلا أجدد اعتراضي على تدليله لها وضعفه معها.

وخلال هذه السنوات كانت ابنة أخي تذهب إلى بيت أسرتها في نهاية الأسبوع لقضاء يومي الخميس والجمعة مع أبويها واخوتها، فكانت تحظى بالحب والحنان من الأسرتين، ثم ظهرت نتيجة الشهادة الاعدادية فإذا بها تحصل على مجموع ضعيف يلحقها بصعوبة بالتعليم الثانوي وهنا قررت أن أرجع الفتاة إلى أبويها، لكي يعيدا تقويمها ويعرفاها بأخطائها خاصة أنني كنت قد لاحظت أنها تأخذ نصائحي لها بلا مبالاة، وأنها لا تتعامل باحترام مع من هم أكبر سنا سواء من مدرسيها أو من الأقارب، ورجعت الفتاة لأسرتها، فلم يتصل بي أخي ليستفهم عن أسباب اعادتها أو دوافعي لذلك، وإنما اعتبر إرجاعها عملا عدائيا من ناحيتي.

أما زوجي فقد اكتأب لذلك كثيرا وراح يقضي معظم أوقاته وحيدا في غرفته ولا يتكلم معي كما أصبح حاد المزاج وعصبيا للغاية، وبعد فترة قصيرة بدأ يتوسل إليّ لإعادة الفتاة إلى بيتنا، وأنا أرفض ذلك بإصرار فوسط لدى شقيقي الأكبر لإرجاعها خوفا على مستقبلها، فقبلت ذلك مضطرة وبشرط أن تستذكر دروسها وتلتزم، ورجعت الفتاة إلى بيتنا مرة أخرى وألحقت بالصف الثانوي الأول والتزمت بالفعل بكل ما طلبته منها من سلوكيات صحيحة.. واستذكار لدروسها، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا، فلقد رجعت مرة أخرى إلى عجرفتها وعاداتها، وتطاولت على إحدى صديقاتي حين جاءت لزيارتي في البيت خلال غيابي عنه، وواجهتها بتصرفاتها هذه فثارت ولم تقبل اللوم، واتصلت بأبيها ثائرة ليحضر ويصطحبها إلى بيته، وجاء أبوها واصطحبها بالفعل غاضبا مني، وعازفا عن أي كلام معي

وعشت مع زوجي وحيدين لمدة عام آخر.. كان من أصعب فترات حياتي، فلقد كان زوجي دائم الغضب مني لسبب ولغير سبب ولم يكن يطيق البقاء بالبيت أو محادثتي وعانيت خلال هذا العام من الذل والهوان مع زوجي ما عانيت، وتحملت ذلك على أمل أن تكون فترة مؤقتة في حياتنا وتنتهي، لكن الأمور ازدادت قسوة وصعوبة، وراح زوجي يلح عليّ في عودة الفتاة إلينا ويسوق إليّ إخوته وأخوتي ليؤيدوا مطلبه، فوافقت في النهاية تحت ضغط إلحاحهم جميعا على عودتها، لسببين الأول أن تتحسن الحالة النفسية السيئة لزوجي، والثاني هو أن تعوض الفتاة ما فاتها من الدراسة وتحول فشلها إلى نجاح، لأن الكل أجمعوا على أنها قد فشلت في دراستها ذلك العام بسبب توقف متابعتنا ورعايتنا لها.

كما أنني من ناحية أخرى كنت قد أملت أن تكون الفتاة قد استوعبت الدرس، واستفادت من أخطائها.. ففوجئت بها ترجع إلينا «قوية» وليست الانسانة الضعيفة التي تحتاج إلينا وإلى رعايتنا لها كما كنت أتوهم، وفوجئت بها تتعامل معي بتعال وعجرفة، فلم أطق تصرفاتها ولا سوء أدبها معي، أما زوجي فقد أصبح في قمة السعادة، وارتفعت معنوياته للسماء ودب فيه الحماس والنشاط من جديد، وأصبحت أسمع ضحكاته العالية وهو يتحدث إليها، وكلما اعترضت على تصرف من تصرفاتها قالت لي الفتاة في غرور إنها قد استأذنت «بابا» فيه وأذن به، تقصد زوجي بذلك..

وفي إحدى المرات رقدت في فراشي أشكو من ارتفاع درجة الحرارة. فإذا بي أسمع ضحكاتهما عالية في الصالة، وكأن شيئا لم يكن، ثم جاءتني الفتاة واضعة يديها في وسطها لتقول لي ببرود، إن «بابا» يسأل إذا كنت في حاجة إلى طبيب أو لا؟ فأجبتها بالنفي، وأنا أغلي من الضيق والكمد، وبعد انتهاء هذه الوعكة الصحية صممت على طردها من بيتي واتصلت بوالدها ليحضر لتسلمها وجاء غاضبا، وجمع ملابسها.. ثم فوجئت به يقول لي متحديا، إنني إذا كنت أظن أنني بطردها من بيتي سوف أدفع زوجي لأن يتخلى عنها فأنا مخطئة في ذلك، لأن زوجي يتكفل بكل طلبات ابنته سواء أكانت مقيمة معنا أم في بيته ثم صفق الباب بشدة وخرج.. وتأكدت مما كنت أسمع من قبل وهو أن زوجي في فترات إعادتي

لهذه الفتاة لأسرتها لم يكن يتوقف عن رعايتها والاهتمام بأمرها والتكفل بكل مطالبها المادية.. وأنه كان يصطحبها بسيارته في الصباح إلى مدرستها ويعيدها منها.. ويصطحبها إلى الدروس الخصوصية... الخ

وواجهت زوجي بما قاله أخي وطلبت تفسيرا له فلم يجب بشيء والتزم الصمت التام، فطالبته بأن يتوقف عن الانفاق على هذه الفتاة في بيت أبيها، فخرج عن صمته ورفض مطلبي، ودبت الخلافات بيننا حول هذا الموضوع وتفاقمت حتى بلغ بنا الحال أن هجر زوجي البيت تاركا وراءه ملابسه وكل أشيائه ليقيم وحيدا بشقة قريبة له مسافرة للخارج، ويصارحني ويصارح كل من تدخلوا بيننا بأنه لن يرجع إلى البيت مرة أخرى إلا إذا عادت إبنة أخي إليه، ومؤكدا أنه سوف يستمر في الالتزام بكل مطالبها سواء رجع إلى البيت أم لم يرجع!

ورفضت هذا الشرط بإصرار، فكانت النتيجة أن مضى عامان حتى الآن ونحن على هذا الحال.. وزوجي يهجر البيت، وأنا أقيم وحيدة في مسكني. ثم يئست من الاصلاح فبدأت أفكر في طلب الطلاق من زوجي، وعبرت عن رغبتي فيه لأحد الأصدقاء الذين يتوسطون بيننا، فطلب زوجي أن أتنازل له عن حقوقي المادية لديه، وأن يسترجع بعض المنقولات الخاصة به من شقة الزوجية، أما الشقة نفسها فإن عقدها باسمي وليست هناك مشكلة في استمراري بها.

ومازال الحال بيننا على ما هو عليه.. وزوجي بصفة شبه دائمة في بيت أخي، ويقوم بتوصيل الفتاة إلى معهدها الذي التحقت به ويتحمل تكاليف حياتها ودراستها، وفي كل يوم يأتي إليّ من يقول لي إنه شاهدهما هنا أوهناك فاستشيط غضبا وغيظا وألما، وأذهب إلى عملي وعلى وجهي قناع الابتسامة الزائفة وقلبي يكتوي بالنار وأنا أتذكر السنوات الطويلة التي عشتها مع زوجي، وكم ضحيت من أجله، وأتذكر هذه الفتاة التي ربيتها منذ كان عمرها أربع سنوات فهانت عليها وعلى زوجي العشرة وكل شيء.

إنني حائرة في أمري.. أريد الطلاق من زوجي خوفا من أن يواتيني الأجل فيأخذ هو وإبنة أخي الشقة باعتبارهما كانا يعيشان فيها ويحصلان على الأثاث وكل شيء، فأظلم في حياتي وأظلم في مماتي كذلك، كما أنه من الممكن أن يتزوجا في هذه الشقة، رغم فارق السن الكبير بينهما، إذ إن زوجي يوشك على بلوغ الستين وإبنة أخي لم تتجاوز العشرين من عمرها.. فهل توافقني على ذلك.. أم هل ترى أن أحيا ما بقي لي من العمر على ذمة زوجي كما أفكر في ذلك أحيانا فأعيش كاظمة غيظي وناعية حظي في الحياة، ومن حين لآخر يأتيني من يزيد أحزاني، بحديثه عن رؤيته لزوجي وللفتاة في أي مكان؟

لقد أبلغني أحدهم منذ فترة قصيرة بأنه قد الحقها بالتدريب في الشركة التي يعمل بها فلم أطق صبرا على ذلك واتصلت به متوعدة إن لم يخرجها من مكان عمله لاتصلن برئيس الشركة شاكية إليه أمره، فخشي ذلك بالفعل وأمرها بعدم الحضور للشركة، لكن من يدريني أنها لم تعد للتدريب بها بعد فترة هدوء قصيرة؟ أنني

أعاني من التفكير في ذلك كثيرا، ومن هذا الوضع المؤلم الذي انتهت إليه حياتنا، فبماذا تنصحني أن أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نحن نغرس بذور الحب والعطاء في أرض الأبناء، فمنهم من تثمر شجرته ثمارها الطيبة.. ومنهم من لا تثمر شجرته إلا الثمار المرة لخطأ في الرعاية أو خدمة الأرض وتهيئتها.. أو لأسباب خارجية أخرى لا سلطان لنا عليها.. وما ينطبق على الأبناء الطبيعيين ينطبق كذلك على غيرهم ممن يرعاهم الانسان ويخصهم برعايته وعطائه، ولا شك أن أسبابا عديدة قد تراكمت فأدت إلى فساد هذه الطفلة التي ربيتمانها صغيرة. أولها هذا التدليل الزائد لها.. والاستجابة لكل رغباتها مما أثر سلبيا على أخلاقياتها وسلوكها في المستقبل، ولهذا فإن ما تعانينه الآن من مرارة هذه الثمرة لا يرجع إلى خطأ الفكرة في حد ذاتها، أقصد فكرة رعاية طفلة صغيرة تؤنس وحدتكما وتجدد تمسككما بالحياة، وإنما إلى الأسلوب الخاطئ الذي اتبعتمانه في تنشئتها وتربيتها، وهو أسلوب التدليل الزائد والعطاء الغامر لها والاستجابة المطلقة لكل رغائبها..

وحين حاولت أنت تدارك الأمر، كان الوقت قد فات وتشكلت سمات شخصيتها وتكوينها النفسي، وكانت أيضا قد استنامت إلى الحماية النفسية الزائدة التي يقدمها لها الأب البديل وتأكدت من سلطانها عليه، فقاومت محاولاتك.. وتمادت في الغرور والأنانية

ولأن كثيرا من متاعب الانسان قد تنجم أحيانا عن عدم فهمه هو نفسه لحقيقة بعض مشاعره ودوافعه، أو عن رفضه الاعتراف لنفسه بهذه الدوافع ومحاولة إنكارها، واستخدام حيلة كبت الأفكار ورفض الإقرار بها لصعوبة احتماله لها.. أو خجلا منها، فلابد من الاقرار بأنك حين تحركت يا سيدتي لإصلاح سلوك هذه الطفلة وأخذها ببعض الشدة، وقمت بإعادتها لأبويها في المرة الأولى، لم تكن دوافعك لذلك «تربوية» خالصة.. وإنما كانت تخالطها كذلك دوافع أنثوية غريزية لزوجة بدأت تستشعر الغيرة الانسانية المفهومة من حب زوجها الغامر لهذه الطفلة وتدليله لها، ومن مكانتها الأثيرة لديه التي بدت للزوجة أكبر مما ينبغي أن تكون حتى ولو كانت الطفلة موضع حب الزوجين واهتمامهما معا..

والزوجة ترغب دائما في أن تكون هي محور الاهتمام الأول لزوجها ومن بعدها يأتي الجميع ولو كانوا أبناءها..، فإذا استشعرت تراجع مكانتها بعض لشيء لدى زوجها وتقدم آخرين عليها في سلم الأولوية لديه حتى ولو كان أحد أبنائه منها، لم تنج من بعض مشاعر الغيرة الانسانية من هذا الابن، فما بالنا حين تكون من تقدمت عليها ربيبة للزوجين لم تساعدها ظروف تنشئتها ولا طبيعتها الأنانية، ولا

صغر سنها، على أن تحسن احترام مشاعر أمها البديلة وتتفادى بعض حساسياتها!

لقد دبت الغيرة في نفسك تجاه هذه الفتاة منذ فترة طويلة، وساءك منها تدليل زوجك الزائد لها.. وسلطانها عليه، واعتزازها الاستفزازي بمكانتها لديه حتى في مواجهتك أنت شخصيا، وضاعف من ضيقك بها سلوكها المتعجرف مع زميلاتها ومدرسيها، وضعف تحصيلها الدراسي، وكلما حاولت التشدد معها والتضييق عليها، وجدت الفتاة لدى زوجك الحنان الغامر، والاستعداد الأبدي لتبرير كل تصرفاتها والتماس الأعذار لها والتغاضي عن أخطائها. وبعض الأطفال يستفيدون غريزيا من هذا الوضع ويسعون لا إراديا لتعميقه بهدف الاستفادة النفسية والمادية من الطرف الآخر الذي لا يحاول التشدد معهم، حملهم على جادة الصواب، وتكون النتيجة وبالا في أغلب الأحيان على شخصية الطفل نفسه وسلوكياته وأخلاقياته، إذ إنه من أهم وسائل التربية السليمة للأبناء أن يتفق أسلوب الأبوين في تربيتهم ولو في الأساسيات وحدها.. مع اختلاف وسائل التعبير عنها بينهما..

ولهذا فلقد أخطأت كثيرا يا سيدتي وتعاميت مرغمة عن نذر الخطر المبكرة حين قبلت رجاء شقيقك الأكبر لك بإعادة الطفلة إلى حياتكما استجابة لرغبة زوجك، ولعلك لو كنت قد جاهدت نفسك وقتها بعض الشيء وتحملت حدة مزاج زوجك وعصبيته خلال فترة الطرد الأولى، وتوصلت معه ببعض الحكمة والمرونة إلى حل وسط آخر هو أن تستمر الطفلة في كنف أبويها على أن يواصل هو رعايتها على البعد والتكفل ببعض نفقاتها. أقول إنك لو كنت قد فعلت ذلك لربما كانت سفينة الحياة قد مضت بكما بغير عناء كبير حتى الآن، ولربما ساهمت مواجهة المشكلة بهذا الحل الوسط مع اعتياد زوجك لإقامة الفتاة بين أبويها تدريجيا في اعتدال مشاعره تجاهها، ولأشرفتما معا على تعليمها وهي في كنف أسرتها ولأصبحت ضيفتكما المفضلة في الاجازات وعطلات نهاية الأسبوع حتى الآن بغير أن تتعمق الروابط بينها وبين زوجك إلى الحد الذي أفسد عليك حياتك الزوجية معه فيما بعد. ولست في الحقيقة أميل للاعتقاد بصحة ظنونك في طبيعة مشاعر زوجك تجاه هذه الفتاة، ولا للاعتقاد بأنها مشاعر رجل تجاه أنثى، أو أنهما يمكن أن يتزوجا حقا ذات يوم كما تتخوفين، فالحق أنني أميل للاعتقاد بأن مشاعره تجاهها ليست غالبا سوى مشاعر أبوية «لأب» لم ينجب تجاه ربيبته التي تولى تربيتها وعمرها أربع سنوات ووجد عزاءه وتعويضه النفسي في حبها وتدليلها وتحمل مسؤولياتها الانسانية والمادية.

ومع اعتقادي بذلك فإنني أرى أن إنكارك عليه اهتمامه الزائد بها، لا يخلو كذلك من منطق سليم.. فالحق أنه قد غاب عنه هو أيضا خلال مغالاته في تدليل هذه الفتاة إدراك طبيعة النفس البشرية وفهم بعض أسرارها، وغاب عنه إدراك أن الغيرة الانسانية معنى أشمل وأوسع من مفهوم الغيرة الأنثوية الضيقة لزوجة على زوجها، وأن هذه الغيرة الانسانية قد يحس بها أي انسان تجاه أي انسان آخر قريب منه يجد غيره يفوز منه بما يرى نفسه أجدر به وأحق..

كما غاب عنه أيضا أن يدرك عمق المشكلة في وقت مبكر، فيفهم أن اعتراضاتك على بعض سلوكيات هذه الفتاة، ليست مجرد اعتراضات تربوية، وإنما هي كذلك تعبير نفسي مستتر عن الغيرة منها، والاحتجاج على مكانتها المغالى فيها لديه، واعتزاز هذه الفتاة الاستفزازي بدلالها على أبيها البديل وتمكنها منه. ولو ساعدته طبيعته على إدراك ذلك في الوقت المناسب لما ألح عليك في اعادتها إلى بيتكما في المرة الأولى، ولما تفاقمت المشكلة حتى أدت إلى طردك لها مرتين بعد ذلك وانفصاله عنك منذ أكثر من عامين.

والآن يا سيدتي فإن مجال الاختيار أمامك ليس متسعا للأسف، فزوجك يشترط لعودته للحياة معك إرجاع هذه الفتاة إلى بيتكما، أو كان يشترط ذلك حين هجر البيت ولا أدرى إذا ما كان مازال قابلا للعودة مع هذا الشرط الآن، أم أن العلاقة بينكما قد فسدت إلى الحد الذي لا يرجى معه أي إصلاح حتى ولو قبلت أنت بعودة الفتاة؟

فالواضح أن المشكلات قد تراكمت بينكما في الفترة التي تلت الطرد الثالث، وكانت هذه الفتاة هي أحد أسبابها الرئيسية، لكنها ليست وحدها كل الأسباب وفي ظروف زوجين مثلكما لا يربط الأبناء بينهما بروابطها الأبدية، فليس هناك ما يدعو أحدهما لاحتمال حياته مع الآخر إن لم يجد في صحبته سكينة النفس واطمئنان القلب.. ولست أستطيع بالرغم من ذلك أن أعفي زوجك من نصيبه من المسؤولية عن تدهور العلاقة بينكما إلى هذا الحد بعد ثلاثين عاما من الزواج، وفي هذه المرحلة من العمر.. ولاعن إهداره لتضحيتك الثمينة من أجله بالحرمان من الإنجاب، تفضيلا لاستمرار الحياة معه.

وفي كل الأحوال فلست أستطيع مطالبتك بقبول شرطه عليك بإعادة هذه الفتاة إلى حياتكما، بعد أن فسدت العلاقة نهائيا بينك وبينها، لكني قد أقترح عليك وعليه التوصل معا إلى نفس هذا الحل الوسط الذي كان ينبغي لكما الأخذ به منذ عدة سنوات، وهو أن يرجع زوجك للحياة معك، وأن تتغاضي أنت عن استمراره في كفالة هذه الفتاة والاهتمام بأمرها بشرط ألا تعود للحياة بينكما، وألا تكدري عليه وعليك صفو الحياة بمحاسبته عن اهتمامه بها أو عطائه لها ولابأس بذلك يا سيدتي إذا رضيتما به لأن الحياة تطالبنا في كثير من الأحيان بأن نقبل ببعض ما لا نرغبه ولا نرضاه، حرصا على سلامنا العائلي والنفسي، وإذا لم يكن أمامنا بديل آخر سوى الوحدة والألم ومكابدة قسوة الحياة وحدنا.

أما إذا كنت ترغبين في الطلاق لغير هدف سوى حرمان زوجك من الشقة التي تقيمين بها حين يحم القضاء بعد عمر طويل بإذن الله، فلا معنى لذلك سوى تعذيب النفس بالأفكار الاكتئابية السوداء، وإهدار الطاقة النفسية في التفكير في الانتقام حتى بعد الرحيل، ومكابدة المشاعر السلبية التي تعانينها الآن كلما سمعت أخبار زوجك واهتمامه بأمر ربيبته هذه، إذ لا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها وعفوا لهذا التعبير المجازي، وتكفينا همومنا ونحن على قيد الحياة لكيلا نضيف إليها همنا الآخر بما سيجرى فيها بعد غيابنا عنها، كما أنه لن يطول الوقت حتى تكشف لك الأيام عن جديد يطمئن بعض خواطرك تجاه زوجك، فخلال وقت قصير سوف

ترتبط هذه الفتاة بشاب ملائم لها.. وسوف تجدين زوجك يقف منها موقف الأب البديل الذي يسعد بارتباط «ابنته» وسعادتها، وليس ذلك الموقف الآخر الذي تظنينه في غمار معاناتك للهيب الغيرة الجامحة.. فحاولي ألا تعذبي نفسك بتسقط أخبارهما معا الآن، واعرضي عليه هذا الحل الوسط الذي تأخر عن موعده كثيرا، فإن لم يقبل به، وأصر على الابتعاد نهائيا أو اشتراط عودة الفتاة للإقامة الكاملة بينكما فلابد في هذه الحالة مما ليس منه بد وهو الانفصال الرسمي بينكما، إذ أنك في تقديري ومهما حاولت أن تغالبي نفسك فلن تنجحي في احتمال الحياة المشتركة معها مرة أخرى، بعد أن تراكمت المرارات وساءت الظنون، بل إنني أحسبها سترفض هي نفسها العودة مرة أخرى إلى بيتك حتى ولو نجحت في تعديل بعض أفكارك بشأن طبيعة العلاقة بينها وبين زوجك، ولن تعدك مثل هذه الحياة المشتركة معها ومع زوجك إلا بالمزيد من الاحتراق النفسي كل يوم.. ومزيد من المشكلات العائلية والنزاع معه حول كل حركة أو كلمة شاردة من جانبه تجاه هذه الفتاة وما دام الأمر كذلك فلا داعي لدخول حقل الألغام من جديد ومكابدة الخوف من الخطر كل لحظة، ولتدعي للأيام فرصتها في تهدئة النفوس وتقريب المسافات.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العيوب الخطيرة

أرجو أن تسمح لي بأن أروي لك قصتي، فأنا شابة نشأت في أسرة مترابطة متحابة بين أم وأب فاضلين وخمسة أبناء من الذكور والاناث أنا أصغرهم، وقد عودنا أبوانا منذ الصغر على المشاركة في شئون البيت والأسرة فنشأنا على تحمل المسؤولية وتعلمنا كيفية مواجهة ظروف الحياة المختلفة، واعترضتنا خلال رحلة الحياة ظروف صعبة كثيرة لكننا صمدنا لها وتغلبنا عليها بالإيمان والصبر حتى تخرجنا جميعا في الكليات المختلفة وتزوج كل إخوتي ولم يبق سواي.

،وكان عمري 21 عاما حين فاتحني شقيق صديقتي الحميمة برغبته في أن يتقدم لخطبتي، فلم اعترض ولم أبد الموافقة في نفس الوقت وتركت الأمر للأقدار، فإذا بي أصدم برفض والد صديقتي لي بعنف وكان رفضا جارحا ومهينا تألمت له كثيرا لأنني لم أجرح إنسانا في حياتي وأجد سعادتي في خدمة الآخرين ومحبتهم، وازداد ألمي حين قابلني والد صديقتي هذه بعد ذلك وعاملني معاملة قاسية للغاية، فبكيت كثيرا ودعوت الله - على خلاف طبيعتي في التسامح مع من يظلمني - أن ينتقم لي ممن جرح إحساسي على هذا النحو، ورجعت إلى حياتي العادية، فلم تمض فترة قصيرة إلا وتعرض والد صديقتي هذه لمحنة قاسية وجدتني حين علمت بها أنهار باكية وأشعر بتأنيب الضمير الشديد ويخيل إليّ أنني السبب في هذه المحنة المؤلمة التي ألمت به لأنني دعوت الله أن يثأر لي منه، وأقسمت ألا أدعو بعد ذلك بشر على أحد مرة أخرى، وأخذت نفسي بمحاولة التخفيف عن هذا الأب، بقدر جهدي ونجحت في ذلك إلى حد كبير.

ثم مضت ثلاث سنوات لم أجد بين من تقدموا لي خلالها من أشعر أنه يناسبني، ثم فاجأتني إحدى قريباتي وزوجها برغبتها في خطبتي لابنها وابتهجت بذلك كثيرا وشعرت بأن حلم السعادة قد اقترب من حياتي، لكني فوجئت بالرفض لشخصيي مرة أخرى من جانب الشاب المرشح للارتباط بي وليس من أسرته، كما حدث في المرة الأولى وكانت مبرراته للرفض هي أنني اتمتع بشخصية قوية أكثر من اللازم ومحبوبة وذكية وفى نفس مستوى ذكائه، وبالتالي فإن شخصيته سوف تكون واضحة أمامي بسهولة وقد تنجم بعض المشاكل بيننا بسبب عدم قدرة أحدنا على إقناع الآخر بما لا يريد الاقتناع به.

وتعجبت لهذه العيوب الخطيرة التي رفضني قريبي من أجلها واعتصمت بالصبر وقررت ألا أدعو الله على أحد بالانتقام لي وإنما أن أنفذ أنا هذا الانتقام بطريقتي الخاصة، وكانت طريقتي في ذلك هي أضاعف من حبي لأسرة قريبي هذا وأن أتعامل معها ومع الشاب الذي رفضني بطريقة طبيعية تماما وكأن شيئا لم يكن وأن أنشغل في نفس الوقت بتنمية مهاراتي وقدراتي، فتعلمت الحياكة والرسم على الزجاج وجميع الأشغال اليدوية، وحصلت على دورات في التعامل مع المعاقين ذهنيا والتعامل مع الصم والبكم، ودورات لتحسين لغتي الانجليزية ولتعلم

اللغة الفرنسية واتجهت بأفكاري للهجرة إلى أمريكا، وبدأت في تجهيز أوراقي للسفر غير نادمة على هجر من أحببتهم فجرحوني جميعا.

وفي أحد الأيام كنت أسير على كورنيش النيل بمدينتي بالأقاليم كأنني أودعه وأودع المدينة كلها قبل الهجرة، فإذا بي أرى طفلا على وشك الغرق في النيل ولم أتمالك نفسي من الاندفاع إليه وانقاذه ووفقني الله بالفعل في ذلك وغادرت المكان عائدة إلى بيتي سعيدة بما فعلت، وغير عابئة بملابسي التي ابتلت حتى منتصف الجسم تقريبا وبعد قليل من عودتي للبيت فوجئت بجرس الباب يرن وضيف غريب يدخل إلى الصالون ويقول لي ولوالدي إنه طبيب ناشئ رآني وأنا أنقذ الطفل من الغرق فتابعني في الطريق حتى عرف مسكني، ويريد أن يتقدم لطلب يدي لأنه قد أعجب بشهامتي وحسن تصرفي في إنقاذ الطفل. ورحب أبي بالشاب، أما أنا فقد اعتذرت له على الفور عن عدم الموافقة على طلبه لأنني على وشك الهجرة لأمريكا بعد أسبوع واحد، وترك الشاب لدى أبي اسمه وبياناته وطلب مني التفكير في الأمر، وانصرف شاكرا حسن الاستقبال.

وفكرت في عرضه ولم أجد في نفسي الرغبة في تغيير خطتي للسفر إلى أمريكا والاستقرار هناك، لكن أمي مرضت فجأة خلال الأيام السابقة لسفري ولزمت الفراش، فقررت تأجيل السفر إلى ما بعد شفائها وفوجئت بهذا الطبيب الشاب يتصل بالبيت بعد ذلك عدة مرات محاولا أن يعرف سبب رفضه، إلى أن اضطر أبي لمصارحته بما واجهته من قبل من رفض جارح مرتين وتأثري بذلك فازداد إلحاحا على أن أعطيه فرصة عادلة للاختبار قبل الحكم عليه، وفكرت في أمره بالفعل فوجدته شابا مهذبا ومحبا ومشابها لأقصى حد لي في الطباع وطريقة التفكير، بل وفي العيوب فقبلت الزواج منه، وتم الزفاف وأنا في قمة السعادة، وبعد شهر العسل بدأت على الفور أفكر في افتتاح عيادة لزوجي، لكن من أين لنا بالآف الجنيهات التي يتطلبها إيجاد شقة صغيرة وتأثيثها، غير أنني لم أتوقف عاجزة أمام هذه العقبة وانما استفدت من بعض «عيوبي» كقوة الشخصية والذكاء، وقررت أن تكون العيادة جزءا من شقة الزوجية واستغنيت عن غرفة ومساحة من الصالة لعمل العيادة، واستطعنا افتتاحها بعد 6 شهور فقط من الزواج وطلبت من زوجي أن أساعده في عمله بها لتوفير أجر الممرضة، خاصة أن العيادة في بدايتها وزوجي مازال طبيبا ناشئا وليس مشهورا ولا معروفا وعملت بالفعل معه كممرضة في ساعات عمل العيادة المسائية، وهيأت له كل الظروف المساعدة للحصول على دراساته العليا، وبدأ المرضى يعرفون زوجي ويترددون على عيادته، وأنا معه في كل الأحوال وقد بدأت أستفيد بهوايتي الأخرى في التفصيل وأقوم بحياكة كل ملابسي وملابس زوجي، وبعد عامين شعرت بدبيب الحياة يتحرك في أحشائي ثم وضعت طفلي الأول وبعد شهور وضعت طفلتي الحبيبة، واكتملت معزوفة الحب والسعادة والتفاهم في حياتنا، وبعد بضع سنوات أخرى كان زوجي قد حقق نجاحا ملموسا في عمله واستطعنا شراء شقة صغيرة في وسط المدينة وأصبحت عيادته الأساسية، والآن وبعد 10 سنوات من زواجنا اتلفت حولي فأجدني أعيش مع زوجي في وئام وسلام وحب، وقد أصبحت لنا

سيارة وقطعة أرض صغيرة في الأرض الجديدة نحاول زراعتها والاستفادة بخيراتها، وأهم من كل ذلك هو أنه قد أصبحت لي هذه الحياة الرائعة السعيدة مع زوجي وأطفالي، ولقد كتبت لك هذه الرسالة في مناسبة احتفالنا بعيد زواجنا العاشر، ولأنه من حقك أيضا أن تفرح لأفراحنا، كما تحزن لأحزاننا، ولقد وجدت نفسي في هذه المناسبة أقارن - بغير وعي منب - بين ما أرادته لي الأقدار، وبين ما أردته أنا لنفسي في البداية، فوجدت أن الشاب الأول الذي رفضني والده لم يوفق حتى الآن إلى عمل ثابت ولم يرتبط نتيجة لذلك بأحد.

أما الشاب الثاني من أقاربي، والذي رفضني هو الآخر فقد ارتبط بإنسانة كان والده وشقيقه يرفضان ارتباطه بها بسبب اختلاف الطباع لكنه أصر على اختياره ويدفع الآن ضريبة هذا الإصرار ويحيا حياة غير سعيدة.

والآن وأنا أنظر إلى الوراء أجدني أشكر هذين الشابين اللذين رفضاني لأنه لولا رفضهما لي لأسباب مختلفة، لما كنت أعيش الآن سعيدة مع زوجي وأبنائي، وأقول لكل فتاة واجهت مثلي محنة الرفض الجارح القاسي ألا تيأس من رحمة الله لأنه قادر على أن يعوضها خيرا عمن رفضها ويعطيها الشخص المناسب لها الذي يعرف لها قدرها ويسعدها ويسعد أيامها، كما حدث معي.. والسلام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نظلم أنفسنا كثيرا حين نتوهم أننا فقدنا للأبد كل فرصتنا للسعادة المأمولة لأنه قد فاتنا تحقيق بعض رغباتنا في أحدى فترات العمر، فالحق أن فرصة السعادة تظل قائمة في الأفق لكنها مؤجلة إلى الوقت المعلوم في لوح القدر، كما أن ما فاتنا منها لم نكن لنعلم علم اليقين هل كان السعادة التي كنا نتطلع إليها حقا أم كان بابا مؤكدا للتعاسة والشقاء أوصدته الأقدار الرحيمة دوننا، والإنسان ذو القلب الحكيم هو الإنسان القادر دائما على استشعار السعادة في أبسط الأشياء والتواؤم مع حياته في كل الظروف، ويعمل جاهدا على أن يحول هزائمه الشخصية واخفاقاته إلى سلام نفسي وزاد يتزود به في سعيه لنيل السعادة التي يستحقها مستعينا على ذلك بفهم أعمق للحياة وخبرة إنسانية أشمل تعينه على التفريق بين ما يستحق أن يأسى عليه إذا فاته وبين ما لا يستحق أن يتجمد أمامه طوال العمر باكيا عليه .

فكل شيء يدور في بوتقة النفس الداخلية، وليس في العالم الخارجي، ونحن وحدنا الذين نملك أيضا أن نرضى عن حياتنا أو أن نسخط عليها ونرفضها ونترك النفس نهبا للمرارات والأحقاد والأفكار السلبية، ولا عجب في ذلك لأننا إنما نرى الحياة بعيوننا ونتفاعل معها سلبا أو إيجابا، بتذوقنا لها واستعدادنا النفسي للابتهاج بها أو السخط عليها، وهي هي الحياة في كل الأحوال سواء قبلنا بها أم رفضناها.

ولقد روى مؤرخو الفن الحديث أن الرسام كلود مونيه قد جلس يوما كاملا أمام كاتدرائية مدينة روان بفرنسا ليرسمها ورسمها في عدة لوحات متتالية، فجاءت صورتها في كل مرة مختلفة عن سابقتها لاختلاف الضوء والظلال على البناء ولاختلاف تأثير ذلك - وهو الأهم - على نفس الفنان وشعوره الداخلي، فجاءت كل لوحة لتعطي ايحاء مختلفا عما يعطيه البناء نفسه من ايحاءات للمشاهد العابر، وقال النقاد إن مونيه لم يرسم كاتدرائية روان، لكنه صنع كاتدرائيته الخاصة به نتيجة لرؤيته الذاتية لها واحساسه المختلف بها.

وكذلك نفعل نحن أيضا في حياتنا يا سيدتي، فيصنع كل منا كاتدرائيته الخاصة نتيجة لرؤيتنا الذاتية للحياة وشعورنا الداخلي الخاص بها واستعدادنا للابتهاج بها أو السخط عليها، وكل إنسان يستطيع أن يجاهد نفسه لكي يدربها على القبول بالأسباب المتاحة له، والرضا بالبدائل إن لم يتح له الفوز بالأصائل، بل أن سعادة الإنسان تتوقف إلى حد كبير على قدرته على القبول ببعض البدائل المتاحة، تعويضا له عما لم يتح له من أسباب أخرى كان يتمناها لنفسه في بعض مراحل العمر.

ولقد روى عن القطب الصوفي أبي اليزيد البسطامي الذي عاش في القرن الثالث الهجري قوله في مجال حديثه عن تهذيب نفسه للوصول إلى مرتبة الصفاء الروحي والخلو من الشوائب: «كنت اثني عشر عاما حداد نفسي، ألقيت بها في كور الرياضة «رياضة الجسم على العبادة» وأحرقتها بنار المجاهدة «مجاهدة رغبات النفس وشهواتها» ووضعتها على سندان المذمة «ذم النفس لعيوبها وشوائبها» وطرقتها بمطرقة الملامة «لوم النفس على هفواتها وأخطائها» حتى جعلت منها مرآة، وكنت مرآة نفسي خمس سنين أصقلها دائما بأنواع من العبادات والتقوى» الخ.

وأنت يا سيدتي قد أخذت نفسك ببعض ما أخذ به هذا القطب الصوفي نفسه، حين طرقت نفسك بمطرقة الملامة على تسرعها في طلب الثأر والانتقام الإلهي ممن أساء إلى مشاعرك برفضك رفضا جارحا ومهينا في المرة الأولى فأصابته بعض محن الحياة، وعاهدت النفس على ألا تطلبي الثأر من أحد وأن تواصلي عطاء الحب للآخرين ولو ظلموك، ثم أثرت في المرة الثانية أن يكون «انتقامك» ممن أساء إليك بتدعيم الثقة في النفس، وتنمية المهارات وشغل الأوقات بالنشاطات المفيدة، وبالاستمرار في العطاء للحياة والآخرين، ومضاعفة الود لمن أساءوا إليك، فكان هذا «الانتقام» نفسه هو شفيعك لدى السماء لنيل السعادة التي كنت تأملين فيها، إذ لولا أن دفعك عطاؤك للحياة إلى إنقاذ هذا الطفل الصغير من الغرق في النيل لما استلفت أنت نظر ذلك الطبيب الشاب، ولما تابعك لكي يصل إليك ويطلب الزواج منك بإلحاح حتى قبلت به. أما «العيوب الخطيرة» التي برر بها قريبك الشاب رفضه لك، فلقد كانت هي نفسها المؤهلات التي أعانتك وأعانت زوجك على صنع نجاحه وتحقيق التقدم في الحياة العملية.

فهذه الشخصية القوية نفسها هي التي هيأت لك أن تكوني سندا لزوجك وقوة دافعة له لا عبئا عليه يزيد من أعبائه ويثقل كاهله، وهي التي هيأت لك القدرة

على اتخاذ القرار بالاستغناء عن جزء من شقة الزوجية وتحويلها إلى عيادة متواضعة لزوجك، والقيام له بعمل الممرضة في البداية توفيرا للنفقات وحثه على استكمال دراساته العليا فكان حبك له بذلك حبا بانيا وليس معوقا ولا هادما كما قد تفعل بعض الأخريات.

والحق أنني أعجب لمن يبرر رفضه لفتاة بقوة شخصيتها وذكائها، كأنما لا يتصور الزوجة إلا طرفا خانعا عاجزا عن أن يقوم بنفسه مع أن قوة الشخصية لا تتعارض أبدا مع احتياج الزوجة لزوجها النفسي والعاطفي ولا مع قدرة الزوج المحب على الاحتواء العاطفي لزوجته، في حين أن من تتمتع بمثل هذه الشخصية تضيف إلى عطائها الإنساني لزوجها.. دعمها له بطريقة فعالة في الحياة وذلك بقدرتها على مواجهة المواقف الطارئة وحسن التصرف والاختيار، فلا تكون بذلك عبئا إنسانيا كاملا تلقى بكلكلها عليه وتثقل خطواته بعجزها عن التصرف والاختيار حتى فيما يعتبر من صميم مسؤولياتها الأسرية.

غير أننا قد سلمنا منذ البداية بأن ما لا يصلح لإنسان قد يصلح لغيره وأن رفض البعض لنا لا ينفي عنا جدارتنا بالسعادة مع غيره.. وانما هو دليل فقط على أن من رفضونا لا يصلحون لنا ولا نصلح لهم، وأننا حين نلتقي بمن تتوافق معهم شخصياتنا وتتآلف أرواحنا فلسوف نتلاحم معهم ونرشف معا رحيق السعادة والنجاح، ولقد قيل في تعريف الألطاف الإلهية إنها ذلك التدبير الإلهي الذي قد يأتينا أحيانا ببعض ما نكره تمهيدا لأن يغمرنا فيها بعد بكل ما نحب ونسعد به، ولقد أعجبني في رسالتك «شكرك» لهذين الشابين اللذين رفضاك من قبل. إذ أنه لولا رفضهما لك لما التقيت بزوجك وما سعدت به وبحياتك معه الآن، غير أنني أرجو لك فقط أن تضيفي إلى ما أخذت به نفسك من قبل من عدم الثأر لنفسك ممن أساءوا إليك شيئا آخر جوهريا هو ألا تسمحي لشبهة الشعور بالشماتة في حظوظ من رفضوك من قبل بأن تتسلل إليك وتشوه عليك صفاء «مرآتك» ذلك أنه مما نتوسل به إلى الله العلي القدير لكي يحفظ علينا سعادتنا أو يهبنا ما نتطلع إليه منها، ألا نشمت في حظوظ الآخرين من التعاسة والشقاء وألا نشغل أنفسنا بمقارنة حظوظنا مع حظوظ من نالوا أكثر مما نلناه نحن من الأسباب وشكرا لك على رسالتك المفيدة والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الإشارة المنتظرة

أعرف أن قصة هذه الرسالة تخالف الاتجاه العام لبابك الجميل، لكني أريد أن أرويها لك وأستشيرك فيها رغم ذلك، فأنا رجل عمري 55 عاما زوج لزوجة طيبة وأب لأربعة أبناء، وأملك مصنعا صغيرا بإحدى المدن الجديدة، وحياتي مستقرة وهادئة وبلا منغصات والحمد الله إلا ما حدث منذ سنوات قليلة من جانب كبرى بناتي.

،فلقد زوجتها من ابن أحد أصدقائي فلم يطل زواجها به ورجعت إلى مطلقة رغما عنها وبغير أن ترغب في الطلاق أو تطلبه، وبعد فترة من رجوعها للبيت ألحت عليّ ابنتي بالسماح لها بالعمل شغلا للفراغ، وبعد ممانعة من جانبي وافقت على أن تعمل بشهادتها المتوسطة في مزرعة يملكها أحد معارفي وعملاء مصنعي، وبدأت عملها فيه ومضت الأيام وأنا أترقب الفرص لكي أطمئن على هذه الفتاة التي زوجتها صغيرة فكان مصير زواجها الفشل، وبعد عام من عملها الجديد زارني في ببتي شاب يعمل معها بالمزرعة ويحمل مؤهلا جامعيا ويبدو لي من مظهره أنه على خلق ودين وطلب يد ابنتي، وبعد أيام جاءني في مصنعي وتحدث إليّ فإذا به يفجر في وجهي مفاجأة كريهة هي أنه متزوج وأب لطفلتين لكنه على غير وفاق مع زوجته وانه لم يصارحني بذلك في الزيارة لأولى، عملاً بمشورة ابنتي التي نصحته «بالتدرج» في إبلاغي بهذه الحقيقة وغضبت لهذه المفاجأة الكريهة غضبا كبيرا، وكتمت غضبي وصرفت هذا الشاب بهدوء رافضا طلبه، وطالبا منه أن يتجه باهتمامه لبيته وزوجته وطفلتيه، بل وعرضت عليه التدخل بينه وبين زوجته للإصلاح بينهما إذا رغب في ذلك، وحين رجعت إلى بيتي في المساء عنفت ابنتي على ذلك بشدة وهددتها بمنعها من الذهاب إلى العمل وحبسها في البيت إن لم ترجع عن هذا الطريق الشائك وكلفت أمها بمتابعة أحوالها وأمرت شقيقها الأصغر بمراقبتها في عملها من حين لآخر.

ومضت شهور فإذا بي أجد نفس هذا الشاب يزورني مرة أخرى مكررا مطلبه، وفى هذه المرة جن جنوني وثرت عليه ثورة عنيفة وطردته من مكتبي فغادرني وهو يقول لي إنه ليس غاضبا مني ولا مما فعلت به، لأنني في «مقام» والده، ولأنه يقدر لي مشاعري وظروفي كأب لكن ما الحيلة فيها لا حيلة لأحد فيه!

وتركت عملي عائدا إلى البيت وأنا ثائر وعنفت ابنتي وأمها وشقيقها وأقسمت على ابنتي ألا تخرج إلى عملها مرة أخرى وألا تقترب من التليفون، ولم تهدأ نفسي بالرغم من ذلك بل ظللت هائجا ثائرا لفترة طويلة فلم يمض سوى أسبوع حتى فوجئت بزيارة من والد زوجة هذا الشاب الذي اكتشفت أنه أحد جيران فترة الصبا القدامى، وقد جاءني الرجل ليذكرني بنفسه وبعشرتنا القديمة ويرجوني ألا أساعد زوج ابنته على هدم أسرته الصغيرة بالموافقة على زواجه من ابنتي، وأكدت له رفضي لهذا الزواج ووقوفي ضده، بكل ما في وسعي من حيلة، وروى لي الرجل عن خلافات بين ابنته وزوجها وكيف انها عصبية بعض الشيء وعنيدة، لكن زوجها شاب طيب ويحبها ويحب طفلتيه بالرغم من ذلك ولابد من

استمرار الحياة بينهما، وطمأنته إلى ذلك ووعدته خيرا، وعقب انصرافه ألحت على خاطري فكرة المسارعة بتزويج ابنتي هذه لأي شاب مقبول حسما للمشكلة وتفاديا للفضائح، وألمحت بذلك لمساعدي القديم في العمل وله ابن شاب لم يسبق له الزواج، فالتقط الاشارة بذكاء، وبعد أيام تقدم ابنه إليّ يطلب يد ابنتي وفرحت بذلك جدا وضغطت على ابنتي لقبوله وشاركني في ذلك زوجتي وأبنائي وقبلت ابنتي به راغمة وتم تقديم الشبكة، وحددت موعدا مستعجلا للقران والزفاف قبل أن تتراجع ابنتي، وقبل الموعد المحدد للزفاف بيومين زارني خطيب ابنتي في مصنعي، وقال لي في خجل وتردد انه قد عرف من ابنتي «قصتها»، وانه يرى لي أن أدعها تختار حياتها كما أرادتها، وانه يحترمها كثيرا لكنها لا تصلح له ولا يصلح لها، ثم أوصاني بالرفق بها وعدم العنف معها، وانصرف. ولم أدر بنفسي حين سمعت منه ذلك فتركت عملي ورجعت إلى البيت على الفور وانهلت على ابنتي ضربا وركلاً حتى سقطت على الأرض تنزف دما، وعنفت كل افراد الأسرة وحطمت آلة التليفون اللعينة ولازمت البيت يومين غارقا في أحزاني وأوجاعي وأنا أحاول رغم ذلك الاطمئنان على هذه الابنة المتعبة عن طريق أمها.

وهدأت الأمور قليلا وحاولت الحديث مع ابنتي مرة أخرى فلم أجد منها إلا دموعها وخوفها، فازددت غضبا وعدت إلى تعنيفها والاساءة إليها من جديد حتى لقد تمنيت لها أن تموت لكي نستريح من متاعبها!

ورجعت إلى العمل، وبعد أيام جاءني صوت زوجتي تخبرني في قلق وخوف أن ابنتي قد غافلتها وتركت البيت ولا تعرف إلى أين ذهبت ولك أن تتخيل ما شعرت به في هذه اللحظة من خوف وغضب وانزعاج واحساس مرير بالطعنة الغائرة في قلبي وكرامتي كأب.

فلقد هجرت ابنتي البيت واعلنت العصيان فأين عساها أن تكون وماذا أفعل وكيف أواجه الأهل والأصدقاء والجيران حين يعرف الجميع هذا الأمر المخجل؟ ولم تطل حيرتي طويلا فبعد ساعات جاءني صوت ذلك الشاب الذي أرادت الزواج منه يرجوني أن أستمع إليه بغير انفعال ويبلغني أن ابنتي قد لجأت إليه وطلبت منه أن يعقد عليها قرانها بغير موافقتي، لكنه لم يفعل حفاظا عليها وعلى روابطها بي وبأسرتها واحتراما لي، ثم كرر عليّ الرجاء بالموافقة على زواجه منها فطلبت منه عودتها أولا إلى البيت وبعد ذلك أفكر في الأمر فقبل ذلك مؤكدا لي أن العنف معها لن يجدي، وانني إذا لجأت إلى العنف معها مرة أخرى فكأنني أدعوه بذلك لأخذ زمام المبادرة، والاستجابة إلى رغبتها التي لم يستجب لها هذه المرة تقديرا لمشاعري كأب، ووعدته خيرا وأنا في أسوأ حال ورجعت ابنتي ولم أفعل معها شيئا، بل ولم أنظر ناحيتها أو أتحدث إليها بالمرة وأشركت خالها الأكبر في الأمر فعرض أن يتم زواجها من هذا الشاب في بيته، ووافقت كارها وقانطا على ذلك، وبشرط إلا تدخل لي بعد زواجها بيتا أو لأحد من أفراد أسرتي.

وتم الزواج في بيت شقيق زوجتي وكان احتفالا كئيبا محدودا واعتبرت ابنتي منذ تلك اللحظة وكأنها قد رحلت عن الحياة بالنسبة لي رغم مشاعري المكتومة تجاهها، وعلمت بعد زواجها ان زوجة زوجها قد هجرته ولجأت إلى القضاء

ونالت كل حقوقها وتركت له طفلتيها بالاتفاق وديا معه على ان تراهما كل أسبوع أو كل أسبوعين مرة، وكانت كبراهما في الخامسة من عمرها والصغرى في الثالثة.

وبدأت ابنتي حياتها مع ذلك الشاب وتظاهرت أنا في البداية بانني لا أريد أن أعرف أو أسمع عنها شيئا لكنني كنت أحترق في داخلي شوقا لان اطمئن عليها وعلى أحوالها، وأترقب بصبر نافد أن تحدثني أمها عنها بل وأن تستمر في الحديث عنها رغم تظاهري بالاستياء لمجرد ذكر اسمها أمامي ولقد كانت زوجتي وشريكة عمري تفهمني وتفهم عمق مشاعري جيدا فلا تحفل بضيقي الظاهري بسماع اسمها، وتنقل إليّ من أخبارها ما تعرف انني في أشد الحاجة إلى سماعه، وكان من بين ما نقلته لي أنها موفقة في حياتها مع زوجها وسعيدة به وانها تحنو على طفلتيه وتعتبر نفسها أما لهما، كما أن زوجها يحسن معاملتها ويعمل لإسعادها واسعاد اطفاله.

وبعد عام من الزواج أنجبت ابنتي طفلا فاسمته رغم مقاطعتي لها باسمي، وبلغني ذلك في حينه فتظاهرت بعدم الاهتمام وإن كنت قد سعدت به في اعماقي ورضيت عنه لأنه أكد لي مشاعرها نحوي.

كما بلغني أيضا أن حسن معاملتها للطفلتين قد قربها كثيرا من أهل زوجها حتى أصبحت تقضي مع والديه المسنين وقتا طويلا، وانتقلت للإقامة معهما لفترة طويلة حين مرضت والدة زوجها. وأنجبت ابنتي طفلا آخر فأصبحت أما لأربعة أطفال، وكل ذلك وأنا مستمر في مقاطعتها وفى منعها من دخول بيتي رغم سماحي لأمها واخوتها بزيارتها والاطمئنان عليها، ومضت ثلاثة أعوام على الزواج ثم فوجئت بزيارة غريبة من جاري القديم والد الزوجة الأولى لزوج ابنتي فرحبت به وأنا أشعر تجاهه بالحرج الشديد منه لارتباط طلاق ابنته بزواج ابنتي من زوجها لكن الرجل الطيب أزال عني هذا الحرج بعد قليل وصارحني بأنه قد جاء لزيارتي ليدعوني لان أنهي مقاطعتي لابنتي وألا أحرم أطفالها من زيارة بيت جدهم، لأن كل شيء راح إلى حال سبيله وانقضى أوان الحساب والعتاب عنه ولأن ابنته قد تصرفت بعناد شديد مع زوجها ولجأت إلى القضاء وتركت طفلتيها على غير رغبة أبويها في كل ذلك، كما انها الآن قد التأمت والحمد لله، هي الأخرى جراحها، وارتبطت بإنسان آخر وجدت معه سعادتها وأمانها ولم يعد هناك ما يبرر لي استمرار مقاطعتي لابنتي من أجل ما حدث.. ثم اختتم حديثه المؤثر قائلا لي انه كجد للطفلتين يشعر بأن ابنتي تحرص عليهما وترعاهما بأمانة وقد ذهبت إلى مدرسة الابنة الكبرى وأثارت مشكلة مع إحدى المعلمات لأنها قد صفعتها حتى لقد ظنتها المعلمة أمها الطبيعية واعتذرت لها عن ذلك، كما انها تذاكر للطفلتين دروسهما مع اطفالها وتحرص عليهم ولهذا كله فهو يدعوني لأن أنهي مقاطعتي لابنتي وأن أصفح عما كان من أمرها، وترقرق الدمع في عيني وأنا أسمع منه ذلك ووعدته خيرا وشكرت له زيارته كثيرا، وانصرف مودعا مني بالحب والإجلال، ومنذ زارني هذا الرجل الطيب وأنا غارق في أفكاري وتأملاتي.. أريد أن أعفو عن ابنتي وأتردد في ذلك وأتذكر خروجها من بيتها ولجوءها الى

ذلك الشاب فرارا مني.. فتصحو المرارة القديمة في نفسي، وأريد أن استمر في مقاطعتها فأتذكر حنانها وحبها لي ولأمها وإخوتها وجنايتي عليها بتزويجها صغيرة، وتسميتها لأول أطفالها باسمي ورحمتها بطفلتي زوجها «وفخري» السري بذلك فيرق لها قلبي.

فبماذا تنصحني أن أفعل يا سيدي.. خاصة وأنت الذي تكره الزواج الثاني حين يشرد الأطفال الصغار ويهدد سعادة الزوجة الأولى، وتلوم الآباء والأمهات حين يقبلون به لبناتهم بغير مقاومة جدية له حرصا على حماية البيوت الآمنة من الانهيار؟ وهل تراني من هؤلاء الآباء الذين تعجب لقبولهم بزواج ابنتهم من زوج لأخرى وأب لأطفال صغار كما جاء في ردك على بعض الرسائل السابقة؟

ثم ما رأيك في «نجاح» هذا الزواج بالنسبة لابنتي على عكس كل المخاوف والتوقعات؟

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قد تمضي الأمور أحيانا في اتجاه نشفق منه على أعزاءنا، ونتحسب لما سوف ينالهم فيه من عناء، فإذا بما اعترضنا عليه من قبل وكرهناه لهم، قد حقق رغم المخاوف والاعتراضات نتائج باهرة في حياتهم تضطرنا لإعادة النظر في موقفنا منه.. وتذكرنا بقول الحق سبحانه وتعالى:

«فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُوا شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا» (النساء:19).

ولا تناقض هناك على الرغم من ذلك بين موقفنا السابق منه، وبين اعترافنا بما حققه من نجاح مخالف لتوقعاتنا السابقة بشأنه، كما لا يعني ذلك أيضا إن قناعاتنا السابقة كانت هي الخاطئة، وإن ما فعل الأبناء بحياتهم كان هو الاختيار الأمثل لهم.

فقناعاتنا صادرة عن ثوابت أخلاقية وتربوية سليمة وهي الأكثر توافقا مع قوانين الحياة والأولى بالاتباع دائما من غيرها وما فعله الأبناء سيظل رغم نتائجه الباهرة في بعض الحالات هو الخروج على قوانين الحياة، فإذا كان قد حقق لهم سعادتهم وأمانهم على غير ما تخوفنا منه.. فلقد صادفوا الاستثناء النادر في الحياة، والذي لا يتكرر كثيرا ولا يصنع قاعدة مهما تكرر ولسنا نملك إزاءه إلا أن نستعيد معه موقف الفقهاء من غريب الفتوى حين يقولون «يبقى الشاذ من الفتيا كما هو ولا يقاس عليه».

وعلى هذا الأساس فإن موقفك من رفض اقتران ابنتك من رجل متزوج وله أطفال صغار كان الموقف الأبوي والأخلاقي الصحيح، حتى ولو كان ما اعترضت عليه قد حقق نتائج طيبة في حياتها، إذ سيظل الأمل الذي ينبغي أن يتطلع اليه كل أب هو أن ترتبط ابنته بشاب لا يترتب على ارتباطها به هدم أسرة صغيرة، وتعاسة

زوجة، وتمزق أطفال صغار بين أبويهم، وسيظل هذا الأمل أيضا هو المثال الذي ينبغي أن تتطلع إليه كل فتاة تريد أن تحيا حياة طبيعية وليست خارجة عن مألوف الحياة، لكن تيار الحياة قد يحمل في أمواجه على الرغم من ذلك الجديد والغريب وستظل تتكرر قصة ارتباط فتاة بزوج لأخرى وأب لأطفال صغار، فهل يعني تكرارها أن يتخلى الآباء والأمهات عن موقفهم المبدئي من رفض مثل هذا الارتباط؟

لا يا سيدي ولهذا فلست أعتبرك من الآباء الذين لا يعترضون اعتراضا جادا على مثل هذا الارتباط.. بل لعلي قد ألومك على عدم تسليمك بالأمر الواقع حين بدا لك وللجميع انه لا مفر منه، وإلا كان البديل أشد إيلاما ونكرا وهو خروج ابنتك على طاعتك وزواجها رغما عنك ممن اختارته، ففي مثل هذه اللحظة الحاسمة ينبغي ألا يقطع الآباء والامهات شعرة معاوية بينهم وبين الأبناء، ولابد لهم أن «يشربوا على القذى» ما تعافه نفوسهم لكيلا يواجهوا هذا الموقف الأشد إيلاما لهم.

وفارق كبير بين التسليم بالأمر الواقع الذي نعجز عن درئه وصده وبين الرضا به والابتهاج له والتشجيع عليه.. وليس من حق الأبناء أن ينتظروا منا أن نتهلل فرحا بما لم نقبل به إلا قبول المضطرين اليه، ومن واجبهم أن يواصلوا جهدهم ومحاولاتهم معنا بصبر طويل لكي يزيلوا ما ترسب في نفوسنا من مرارات بشأنهم.

وفي قصة ابنتك هذه فإنها لم تقطع ما بينها وبينك على الرغم من مقاطعتك لها وتحريمك لبيتك عليها، ولعلها لم تكف عن محاولة طلب صفحك ورضاك عنها منذ اليوم الأول لزواجها.. فلما لم تجد لمحاولاتها صدى، أرسلت إليك رسالة معنوية مؤثرة هي تسمية طفلها الأول باسمك، ولا شك أنك قد رضيت عن ذلك في أعماقك وإن لم تصرح به، ورضيت أيضا عن أمانتها الدينية والأخلاقية مع طفلتي زوجها وإن لم تعترف بذلك، ورضيت عن فوزها باحترام أهل زوجها لها وتعاطفهم معها إلى أن جاءك جارك القديم متشفعا لها عندك وهو من شقى بغير شك بطلاق ابنته من زوجها وزواج ابنتك منه، فكان ذلك دليلا جديدا على أن هذه الابنة وإن كانت قد خالفت قوانين الحياة الأولى بالاتباع في البداية، إلا ان سيرتها في الحياة قد اكسبتها احترام حتى «الخصوم» الطبيعيين لها وتعاطفهم. ومن المؤكد انه مما أسهم في تذويب المرارات القديمة لديهم ان من دفعت ضريبة هذا الارتباط بين ابنتك وزوجها، قد وجدت هي الأخرى طريقها في الحياة وارتبطت بمن وجدت معه أمانها وسعادتها. فكأن الحياة في حالة هذين الزوجين السابقين غير المتوافقين، قد صححت بعض أخطائها فارتبط الزوج بمن وجد لديها سعادته وأمانه وهي ابنتك، وارتبطت زوجته بمن تفتحت له مسامها وعوضها عن فشل تجربتها الأولى، ولا بأس بأن تصحح الحياة بعض اخطائها من حين لآخر إذا لم يكن لمثل هذا التصحيح ضريبة باهظة من تعاسة الأطفال وحيرتهم بين أبوين أخطأ كل منهما اختيار صاحبه!

ولقد خفف بعض الشيء من ضريبة هذا التصحيح أن غرس الله في قلب ابنتك الرحمة بطفلتي زوجها فأحسنت رعايتهما والحنو عليهما، لكن سيبقى هناك دائما

«ضحايا» لمثل هذا التصحيح يدفعون ثمنه كارهين وهم الأطفال الصغار، وسيبقى من الفضلاء والفضليات دائما من لا يقبلون به لأطفالهم ولو تجرعوا هم كؤوس الشقاء، ولا يمكن لذي قلب حكيم أن يلوم فاضلا على فضله وتضحيته لسعادته الخاصة من أجل سعادة صغاره.. وكل إنسان يحيا حياته وفقا لمعتقداته ومبادئه ورؤيته الخاصة للحياة، غير أن الحياة قد تفرض علينا حقائقها في كثير من الأحيان..

ومن هذه الحقائق الآن يا سيدي أن ابنتك التي تزوجت زواجا لم تكن ترجوه لها، قد أنجبت الآن طفلين، وأصبحت ربة أسرة من أربعة أطفال ترعاهم بأمانة، وزوجة لرجل يرعاها ويعمل على إسعادها وإسعاد أسرته معها فما معنى استمرار مقاطعتك لها حتى الآن وتحريمك لبيتك عليها؟

إن حدة الرفض لمثل هذه العلاقة تطلق أحيانا في الزوجين اللذين تزوجا زواجا لم يرحب به أهل الطرفين شرارة التحدي لديهما لإثبات أن اختيارهما هو الاختيار الصحيح على الرغم من اعتراض الجميع، وقد تزيد من تمسك كل منهما بالآخر ومن إصراره على إنجاح الحياة الزوجية معه وتجاوز كل الصعاب والعقبات، لكيلا يذهب ما تحملاه من عناء في سبيل الزواج سدى.

والواضح أن هذا الرفض كان من أسباب نجاح هذا الزواج واستمراره الى جانب الأسباب الموضوعية الأخرى كتوافق الشخصيتين.. والعاطفة القوية التي تجمع بينهما، والحاجة المتبادلة لدى كل منهما الى الآخر وأنت كأب يا سيدي لم تكن لك غاية من رفضك لزواج ابنتك بهذا الشاب سوى أن تطمئن الى سعادتها واستقرار حياتها وما دامت «الغاية» قد تحققت والحمد لله فلا بأس بأن تتغاضى الآن عن «الوسيلة» وتسعد بسعادة ابنتك.. وترضى عن خطتها الكريمة في الحياة وتفتح لها أبواب قلبك وبيتك..

فلقد سقط خطأ الخروج على مألوف الحياة بالتقادم، وبالاحترام الذي اكتسبته ابنتك لدى أهل زوجها لأمانتها مع طفليته ومع الحياة وأيضا بهذه «النتائج» الطيبة المخالفة لتوقعاتك لها.

ولست أرى لك - وقد شعرت بين سطورك بعمق اعتزازك بشفاعة الصهر السابق لزوجها لديك - أن تستمر في مقاطعتها الى ما لا نهاية، فهي بلا شك تتطلع الآن لأن يكتمل لها هناؤها برضاك عنها، وطي صفحة الخلافات القديمة معها.. وتترقب الآن منك إشارة الصفح والغفران لكي تهرع اليك دامعة العين مبهورة الأنفاس طالبة مباركتك لسعادتها وحياتها الجديدة فأعط هذه «الإشارة» النبيلة يا سيدي ولا تتردد.. ولسوف تجدها بين أحضانك على الفور حاملة فوق ذراعيها حفيدين صغيرين يتطلعان بشوق وأمل الى جدهما الذي يحمل أحدهما اسمه ولم تجمع الأيام بينهما وبينه من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

البداية الثانية

أنا شاب في الثلاثين من عمري.. نشأت في أسرة طيبة بين أبي الذي يعمل بالتجارة وأمي الجامعية التي تفرغت لبيتها وأختي الوحيدة الغالية، ومضت بنا رحلة الحياة حتى بلغت أنا وأختي المرحلة الجامعية، ثم توفى أبي فجأة وأنا طالب بالسنة الثالثة وأختي في عامها الأول الجامعي، وتولانا الحزن العميق عليه وتكدر صفو حياتنا، وكانت أمنا أكثرنا حزنا لرحيل شريك عمرها.. وبعد أسابيع بدأنا نتكيف مع الأمر الواقع ونتقبل حياتنا.. فاذا بأمي ترحل هي الأخرى عن الحياة بعد وفاة أبي بثلاثة شهور فقط رحمها الله رحمة واسعة، ووجدت نفسي انا وشقيقتي ولم يعد لكل منا سوى الآخر، فازددنا ارتباطا ببعضنا البعض وتماسكا. ونجحت في امتحان السنة الثالثة وانتقلت الى السنة النهائية في كليتي، وفي أول يوم لي فيها التقيت بفتاة شعرت بضعف غريب تجاهها، وكأن سهم الحب قد نفذ فجأة في قلبي، وتكرر اللقاء وصارحتها بمشاعري وعن رغبتي في الارتباط بها الارتباط المشروع الطبيعي في مثل هذا الحالة، ورحبت هي بذلك ولكن بشرط أن ننتهي أولا من دراستنا الجامعية وسعدت بالتفاهم بيننا وصارحت شقيقتي بنيتي في الارتباط بها وسعدت لسعادتي.

وكان أبي - رحمه الله - قد ترك لنا ما نؤمن به حياتنا ضد غدر الأيام، غير أنه لم أشعر بمشكلة كبيرة في اتمام زواجي بفتاتي حين يأتي الوقت المناسب، فلم تمض شهور على هذا التعاهد حتى فوجئت بها، تتزوج قبل الامتحان النهائي من شخص آخر بلا مقدمات ولا أي محاولة لشرح الأسباب، وتألمت كثيرا لذلك، وتمنيت لو كان أبي على قيد الحياة ليعينني على مواجهة هذا الموقف الغادر. وتمالكت نفسي بعد قليل وكرست وقتي وجهدي للاستذكار وأديت الامتحان وحصلت على شهادتي بتقدير جيد، ووفقني الله في العثور على عمل ممتاز بإحدى الشركات الأجنبية بالقاهرة، وثبت اقدامي في عملي ونلت ثقة رؤسائي وحب زملائي.. وبعد عام من تخرجي تقدم لأختي زميل لها وشاب ممتاز ومن أسرة طيبة فرحبت به لما لمسته من رغبة أختي في الارتباط به ولمميزاته العائلية والشخصية، وبالفعل تم عقد القران خلال اسابيع، وبعد شهور أخرى تم الزفاف وانتقلت أختي الحبيبة الى بيت زوجها، وسعدت بحياتها معه وسعدت بسعادتها، وذات يوم كنت جالسا في مطعم للوجبات السريعة لأتناول غدائي لأول مرة خارج بيتي بعد انتقال أختي لبيت زوجها، فإذا بي أرى فتاة القلب القديمة تدخل من باب المطعم ومعها طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات تقريبا فخفق قلبي بشدة حين رأيتها.. وتساءلت بيني وبين نفسي.. هل أحييها إذا التقت العيون كزميلة قديمة أم انتظر ان تأتي منها هذه المبادرة؟ ولأن المطعم صغير فقد كان لابد لها أن تراني كما رأيتها، ورأتني وابتسمت لي فتقدمت منها وحييتها وتبادلت معها الحديث عن الأحوال، وذكريات الكلية، وسألتها عن اسم طفلتها وعرفت منها انها تعيش مع اسرتها منذ شهور لأن زوجها قد انتقل الى العالم الآخر بعد خمس سنوات فقط من الزواج، وكانت هذه هي البداية الثانية مع فتاتي السابقة، فلقد تكررت اللقاءات بيننا بعد ذلك كثيرا

واستيقظ الحب القديم في قلبي تجاهها بأقوى مما كان في المرة الأولى، واعتبرت لقائي بها مرة أخرى بالصدفة بعد ترملها إشارة من السماء بأن هذا الحب سوف يستكمل فصوله التي توقفت قبل اتمامها.. وصارحتها على الفور برغبتي في الارتباط بها مرة أخرى، ووافقت هي على الزواج مني ولكن بشرطين مهمين الأول أن اشترى لها شقة باسمها. والثاني أن تكون العصمة بيدها، وقبلت بهذين الشرطين بغير تردد، وتساءلت: وماذا يضيرني في أن تكون العصمة في يدها أو لا تكون وفي أن تكون الشقة باسمها أو باسمي ونحن قد التقينا في الحياة مرة أخرى على غير توقع ولن يفرط أحدنا في الآخر؟ واشتريت الشقة بالفعل، وكتبتها باسمها كرغبتها وعقدنا قراننا بعد شهور ومنحتها في عقد الزواج العصمة كطلبها واحتفظت بشقة الأسرة التي نشأت فيها مغلقة لتكون مرجعا لشقيقتي ترجع اليها عند الحاجة.. وتزوجنا وبدأنا حياتنا معا، وبذلت كل جهدي لإسعاد زوجتي وطفلتها اليتيمة التي اعتبرتها ابنة لي، وبعد عام أنجبت زوجتي طفلنا الوحيد فسعدت بأن يكون لابني أختا، الى أن جاء يوم منذ أسابيع وزارتني أختي تطلب مني قرضا تحتاج إليه لأنها قد شاركت زوجها في مشروع تجاري استنفد ما معها من نقود، فلم أتردد في وعدها بتدبير المبلغ المطلوب لها في أقرب فرصة، وانصرفت شقيقتي شاكرة وراضية ففوجئت بزوجتي بعد خروجها تسألني: هل ستعطيها حقا هذا ا هذا المبلغ؟

وأجبتها بالإيجاب قائلا لها ببساطة إنها أختي الوحيدة والباقية لي من أفراد أسرتي، وان المبلغ المطلوب لن يؤثر علينا في شيء لأن معي ما يكفيني ويكفي ببتي وزيادة، فاذا بزوجتي تكشف لي عن وجهها الحقيقي وتتطاول عليّ وتنهال تجريحا في بألفاظ يصعب عليّ سردها، وكرد فعل لهذا التجريح وهذه الألفاظ النابية، فقد اعلنتها بأنني سأعطي لأختي هذا المبلغ ليس كقرض كما طلبت وانما كمنحة لا ترد، لأنني حر في مالي وفيما أفعله به، وبتنا ليلتنا هذه متخاصمين، وفي الصباح ذهبت الى البنك قبل أن أتوجه الى عملي وسحبت المبلغ المطلوب وتوجهت به الى بيت أختي وأعطيته لها وشعرت بسعادة كبيرة وأنا أفعل ذلك، ثم توجهت الى عملي وانا مازلت لا أصدق ما جرى بيني وبين زوجتي في الليلة الماضية، وقضيت يومي كله في العمل مؤملا ان تمضي هذه الزوبعة الصغيرة بلا أثر على علاقتنا وحياتنا. ورجعت الى البيت فإذا بي أفاجأ بان «صاحبة العصمة» زوجتي قد غيرت كالون باب الشقة.. وتركت لي كل متعلقاتي لدى البواب، فوقفت مبهوتا أمام باب الشقة المغلق أتعجب لما آل إليه حالنا هكذا بين يوم وليلة، وشعرت بالخجل الشديد والبواب يقول لي في حياء إن «الحقائب» لديه في انتظاري، فحملت أشيائي مهموما ورجعت الى شقة الأسرة التي أحسنت صنعا حين احتفظت بها.. وأنا اتعجب لما فعلته زوجتي بي لأول بادرة خلاف بيننا؟

وذهبت الى أسرتها بعد أيام لأعرض على أهلها الأمر فلم أجد لديهم إلا السكوت على ما جرى وانتظرت حتى تهدأ العاصفة، ونتوصل معا الى حل للمشكلة، ليس من أجلها ولا من أجلي ولكن من أجل الطفل الوليد، ولكن هيهات أن أتوصل معها الى أي حل مرض.

والآن يا سيدي فقد مضت أسابيع بدون أية بادرة تراجع عن الموقف الذي اتخذته زوجتي.. ولم يبق لي سوى كرامتي التي امتهنتها «صاحبة العصمة» بتصرفاتها هذه، فاتخذت قراري بأن أطلقها ثأرا لكرامتي الجريحة وبغض النظر حتى عن مصلحة ابني ومستقبله.

فهل ما توصلت إليه هو القرار السليم؟

انني في حيرة من أمري وأريد مشورتك حول ما اعتزمته من قرار ولسوف اعتبر صمتك عن الرد عليّ تأييدا للقرار.. فهل تفيدني بالرأي الصريح في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لو صح ما تقول من أنه عند أول بادرة خلاف بينك وبين زوجتك ولهذا هذا السبب وحده، قد قامت بتغيير كالون باب الشقة التي اشتريتها لها، وألقت لك بمتعلقاتك الشخصية لدى البواب، لو هذا على وجه الدقة، لقلت لك على الفور إن القرار الذي اتخذته هو القرار الصحيح الوحيد للتعامل مع مثل هذه الزوجة الجاحدة، حتى ولو كان قرارا ظالما من الناحية الانسانية لطفلكما الوليد!.

اما انه قرار ظالم لهذا الطفل، فلا جدال في ذلك لأنه سوف يعود عليه بأوخم العواقب ويحرمه من حقه العادل في أن ينشأ بين أبوين يرعيانه ويقدمان له الحماية النفسية والاجتماعية، وأما انه القرار الوحيد الصحيح للأسف بالرغم من ذلك، فلأن من تتحول عند أول بادرة خلاف الى نمرة شرسة لا ترعى لأحد حرمة، ولا تبقي لرأب الصدع أملا، فتنهض على الفور الى تغيير كالون باب الشقة التي اشتراها لها زوجها من ماله ثم تلقى له بملابسه ومتعلقاته لدى بواب العمارة على هذا النحو المهين.. مثل هذه الزوجة لا علاج لها إلا بصدمة الطلاق المزلزلة التي تفيقها من غرورها وتنبهها الى ان من تتوهم انها تملك عليه نفسه حتى لا يجرؤ ذات مرة على ان يتمرد على ارادتها انما يستطيع كذلك ان ينزعها من حياته كما ينزع الانسان الشوكة المغروسة في لحمه.. ويتحمل آلام نزعها المؤقتة ليستريح من أوجاعه الى الابد.

فاذا تبصرت ذلك بالفعل.. وتعلمت بدرس التجربة ان الفجر في الخصومة لا يورث إلا قتل الحب ولو كان عملاقا ومتمكنا، فقد ينفتح الباب في المستقبل للتفاهم معها حول بداية ثالثة على أسس جديدة.. وبغير شروط استغلالية مهينة، إيثارا لمصلحة الطفلين معا وليس طفلكما وحده.

لأنه فارق كبير يا صديقي بين أن يختلف زوجان حول أمر من أمور الحياة ويتجادلا فيه ويتخاصما لبعض الوقت بشأنه، وبين ان يقفز أحد الطرفين هكذا من قمة الوفاق الى قمة العداء بلا تدرج فيطرد الآخر من جنته ويشهد الغرباء على مهانته وإذلاله.. وقد كان في مقدوره حتى لو رغب في فصم العلاقة مع شريكه ان يفعل ذلك بما يحفظ عليه كرامته، ويبقى للحب أملا في التفاهم بعد حين. ومن يفعل

ذلك لابد أن يشعره الطرف المهان بأن من الأمور مالا يقبل التهاون معه.. ولو دفع المرء ثمن ذلك من سعادته واستقراره ومشاعره العاطفية، بل وحتى لو دفع أيضا بعض الأعزاء من أبنائه ثمن حمق أحد أبويه وفجره الى ان يتعلم الطرف المعتدي درس المحنة ويستشعر مسؤوليته المشتركة عن سعادة هؤلاء الأبناء.

وما دامت زوجتك لم تتعلم بعد درس التجربة ومازالت سادرة في غيها بدليل عجزك حتى الآن عن التوصل معها الى حل ملائم، فليكن الانفصال اذن هو الحل الذي يحفظ عليك كرامتك، ويضع هذه السيدة أمام مسؤولياتها عن طفلها البريء وطفلتها أيضا التي عوضتها الاقدار بأب مثلك، ومازالت في حاجة الى أب بديل يرعاها ويحميها من غوائل الحياة.

والحق انها لم تفعل ما فعلت طلبا لهذا الطلاق وإلا لكانت قد استخدمت حقها في تطليق نفسها منك، لكنها أقدمت عليه فقط بهدف ترويضك واخضاعك وتلقينك درسا لا تنساه عقابا لك على تحديك لإرادتها السامية في أول بادرة خلاف بينكما.

ولا شك أنك اخطأت حين استجبت لرغبتها في شراء الشقة باسمها، وليس يعنيني هنا ان تستجيب لرغبتها في أن تكون لها العصمة في عقد الزواج أو لا تكون، لكن تلازم هذين المطلبين معا ووضعهما امامك؛ في صيغة الشرط الذي لا تقبل التنازل عنه لإتمام الزواج، كان ينبغي له ان يثير شكوكك منذ البداية حول مفاهيم هذه السيدة عن الزواج ونظرتها للحياة والمستقبل، وينذرك منذ البداية بمغالاة هذه السيدة في الاعتداد بنفسها واحساسها بمدى سطوتها عليك، وثقتها في امتثالك لكل رغباتها وأوامرها. ولا شك أيضا في انها لم تحمل لك بعض ما حملت لها أنت من حب ومن مشاعر عاطفية سامية، فلقد غدرت بك مرتين حتى الآن بغير تردد ولا تدرج، وفى ذلك وحده كل الكفاية للحكم على شخصيتها ومدى وفائها ومدى احترامها لحقوق الآخرين عليها..

والامام ابن حزم الاندلسي يقول:

أفعال كل امرىء تنبىء بعنصره

والعين تغنيك عن ان تطلب الأثر!

وبدلا من أن تشكر اقدارها التي عوضتها بك عن تجربتها الأولى الحزينة في الزواج فإنها لم تتعلم من دروس هذه التجربة سوى درسها الفاسد فقط وهو الخوف من المستقبل وتقلبات الايام وحدة احساسها المادي بدرجة غير طبيعية ورغبتها في أن تؤمن نفسها بكل الضمانات ولو كان ذلك على حساب من يرتبط بها، ولقد استنامت الى احساسها بسطوتها عليك وشدة رغبتك فيها ففزعت بشدة حين لمست فيك بعض الرغبة في العطاء لشقيقتك الوحيدة.. وبعض القدرة على عدم الامتثال لإرادتها في كل شيء.. فكان ما كان من أمركما معا.

والمثل الانجليزي القديم يقول إن العاقل له عينان تبصران، اما الأحمق فليس في وجهه سوى تجويفين ينظران ولا يبصران.. ولا يتبصران..

وكذلك المغرور بقوته او جماله وأوهام سيطرته على شريك حياته، ولابد من تلقين مثل هذا المغرور - ان لم يفق من غروره - درسا قاسيا يعيده الى جادة العدل والحق والانصاف ويضيء تجويف عينيه ويعيد إليها قدرتها على الابصار الواعي لحقائق الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزوات الرجال

أنا سيدة في الخامسة والأربعين من عمري أعمل عملا مرموقا ومتزوجة منذ عشرين عاما، وأم لعدد من الأبناء، وقد تقدم زوجي لخطبتي وأنا في الثالثة والعشرين من عمري، وكان هو في ذلك الوقت يكافح لكي يبني حياته ويقوم بواجبه والتزاماته تجاه أسرته، فتحملت معه صعوبات البداية، ورضيت بأن أعيش معه في بيت أهله لفترة طويلة حتى يتمكن من تدبير مطالب الحياة وتوفير مسكن الزوجية، وعشت في بيت أهله كواحدة من أهله أنام في غرفة البنات إلى أن يرجع زوجي من أسفاره الكثيرة وراء عمله، ثم تحسنت ظروفنا بعد ذلك وأثمر كفاحنا المشترك في الحياة فأصبح لنا مسكن مستقل وجميل وجاء الأبناء الذين ملأوا علينا حياتنا واكتملت بهم سعادتنا، وحقق زوجي نجاحا ملحوظا في عمله، حققت أنا كذلك نجاحا لا بأس به وتعاونا معا على الحياة بلا فرق بين مالي وماله، واستقرت سفينة الحياة بنا بعد سنوات من الزواج في إحدى المدن الصغيرة حيث تعيش أسرة زوجي. ثم احتجت ذات يوم إلى من يساعدني في شئون البيت فجاءني زوجي بفتاة قريباته البعيدات تستحق المساعدة، فعملت معنا ورحبت بها كأخت صغيرة لي وكواحدة من قريبات زوجي وليس كشغالة. وقضت معنا فترة من الزمن ثم شكت من بعد المسافة بين بيتنا وبيت أسرتها، فأعفيتها من العمل معنا وتمنيت لها التوفيق في حياتها وسعيت بقدر جهدي لتزويجها بعد أن تأخرت بها سن الزواج، فلاحظت فتورها وعدم حماسها لذلك ودهشت لتهربها من محاولاتي لتعريفها بشاب رشحته للزواج منها وتعجبت لذلك كثيرا ثم نسيتها ونسيت أمرها في غمار انشغالي بشئون أسرتي وأبنائي إلى أن فوجئت ذات يوم بوالدي يصارحني مشفقا بأن زوجي متزوج من هذه الفتاة عرفيا منذ فترة ليست قليلة وأنه يستأجر لها شقة صغيرة بالقرب من بيت أمها، وتعجبت لما قاله أبي كثيرا ورفضت تصديقه إذ كيف يتزوج زوجي ذلك الرجل المرموق في مجتمعه وأسرته وعمله من فتاة غير جميلة وغير متعلمة ولا ذكية مثلها، لكن والدي أكد لي معلوماته وقال لي إنه لم يبلغني بما قال إلا بعد أن تقصى حقيقة الأمر وتأكد منه، وقررت ألا أسبق الأحداث وأن انتظر زوجي لأسأله عما سمعت به، وجاء زوجي من سفر قصير له، فواجهته بما سمعت به، فإذا به لا ينكره ولا ينفيه، وإنما يعتذر عنه فقط بأنها نزوات الرجال التي لا تؤثر على حبه، واحترامه، وحاجته الدامغة لي، لأنه لم يحب سواي ..إلخ.

ولم أتمالك نفسي حين سمعت ذلك وغضبت منه غضبا هائلا ورحت أردد باكية وذاهلة: حسبي الله ونعم الوكيل، ولست أعرف كيف مضت تلك الليلة، ولا كيف انقضت ساعاتها الثقيلة على نفسي، وفي اليوم التالي جاءني من أهلي من يقول لي إنها لم تكن الزيجة السرية الوحيدة له، وإنه قد «فعلها» قبل ذلك منذ أحد عشر عاما وبنفس طريقة الزواج العرفي السرى ودامت زيجته بضعة أشهر، ثم كررها بعد ذلك مرة أو مرتين أو ثلاثا، وازداد ذهولي وانهياري وواجهت زوجي بما سمعت مرة أخرى فلم ينكره، ولم يجد ما يقوله سوى أنها «نزوات الرجال»

وإنه يحبني ولا يحب سواي، بل إنه كان يقارن دائما بيني وبين من يتزوجها، فتكون نتيجة المقارنة دائما لصالحي ويزداد حبا لي واحتراما وإعجابا!

وثارت نفسي على زوجي ثورة رهيبة وخيرته بين أمرين لا ثالث لها إما أن يختارني أنا وأبنائي.. وإما أن يختار هذه الفتاة غير المتعلمة ويطلق سراحي ويقطع ما بيني وبينه من رابطة الزوجية.. فوعدني بطلاقها لكنه راح بالرغم من ذلك باطلني في تنفيذه يوما بعد الآخر، ويعد بإتمام الطلاق ولا ينفذ الوعد. إلى أن ضقت بكل شيء فهجرت البيت ولجأت إلى أهلي وانكشف المستور الذي حاولت تكتمه من قبل بقدر جهدي، وفي اليوم التالي جاء زوجي إلى في بيت أهلي مهرولا وباكيا، ومؤكدا انه قد طلقها، واشترط عليه والدي بعض الشروط المادية المحدودة لضمان بعض حقي لديه بعد ان اختلطت نقودنا طوال السنوات الماضية، ولم يعترض زوجي على شيء من ذلك ورجعت إلى بيتي وأنا حزينة كسيرة الخاطر، أفكر وأتعجب كيف رضي زوجي لنفسه وهو الذي يعتز بي ويفخر بين أهله، أن يتزوج عليّ فتاة عاطلة من الجمال وجاهلة كهذه الفتاة، بل وكيف رضي لنفسه بأن يتزوج سرا قبلها واحدة أو أكثر.. علم ذلك عند ربي..

لقد وهبنا الله من نعمه الكثير والكثير، فأنعم علينا بالأبناء الممتازين وبالنجاح المهني في عمله وعملي.. وبالحياة الميسورة.. وأهم من كل ذلك بالوفاق الزوجي، فلم نختلف طوال عشرين عاما خلافا جادا ذات يوم ولم نتغاضب ونتخاصم ونتشاجر كما يفعل بعض الأزواج والزوجات، فما معنى هذا الجحود يا سيدى لنعم الله علينا؟

إنني أحاول بكل جهدي أن أغالب نفسي ومشاعري لكي أقف إلى جوار زوجي بعد ما حدث لكني اعترف لك بأنني قد فقدت معظم احترامي السابق له رغم أنني لم أفقد الحب له.. وإنني كثيرا ما أتحدث إليه بشيء من الاستعلاء ورفع الصوت، وهو الأمر الذي لم أعتده من قبل مع زوجي وأضيق بنفسي من أجل ذلك لأنني كنت أود أن أظل إلى النهاية الزوجة المطيعة المحبة التي تحترم نفسها وزوجها وأبناءها والمحيطين بها.. لكن ماذا أفعل مع نفسي التي لم تهدأ بعد ولم تصفح، إنني لا أنكر أن زوجي يتحملني ويتحمل عصبيتي معه الآن، وانه مازال يكرر عليّ انه يحبني ولم يحب سواي وأن كل ما فعله ليس سوى نزوات الرجال، فما هي نزوات الرجال هذه يا سيدي التي يبررون بها الخيانة والخداع وجحود نعم الله عليهم! إنني أحاول بقدر جهدي أن أدفع سفينة الحياة إلى الأمام وأن أساعد أبنائي على تخطي تلك المحنة التي أثرت كثيرا في معنوياتهم وحالتهم النفسية، فماذا تقول لي يا سيدي وبماذا تنصحني أن أفعل لكي أتجاوز أحزاني التي أشعر أنها سوف تلازمني إلى النهاية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من يطلب احترام الآخرين له، عليه أن يلتزم بالنهج القويم في الحياة ويسلك في حياته الخاصة والعامة السلوك الذي يبعث الاحترام في نفوس الآخرين له، ولا يضعه موضع انتقادهم أو انتقاصهم أو استهجانهم لتصرفاته. فالاحترام إحساس ذاتي لا إرادي يصدر من داخل الإنسان ولا يستطيع أن يرغم نفسه على احترام من لا يشعر له به، فإذا رشحتنا سلوكياتنا في الحياة لنيل احترام الآخرين لنا فمن واجبنا ألا نعتبره حقا إلهيا أبديا نحظى به إلى آخر العمر بغض النظر عما نفعل أو نختار من اختيارات الحياة، ذلك أنه رهين باستمرار التزامنا بالنهج القويم الذي رشحنا له، وقد نفقد هذا الاحترام كله أو بعضه إن لم نحافظ عليه ولم ننمه، أو إذا خرجنا فجأة عن التزامنا الأخلاقي الذي أهلنا له.

بل لعلنا في هذه الحالة نفقده بأسرع مما اكتسبناه، لأن بناء الاحترام يتطلب التزاما أخلاقيا طويلا، وسلوكا جادا أمينا مع الحياة لفترة طويلة حتى يقتنع الآخرون بجدارتنا بنيل ثقتهم واحترامهم، أما فقد كل ذلك فلا يتطلب منا إلا تصرفا طائشا واحدا أو سلوكا مستهجنا واحدا نستجيب فيه لغرائزنا البدائية أو خطرات نفوسنا الأمارة بالسوء فتهتز ثقة الآخرين بنا ويراجعون أنفسهم في مدى جدارتنا بنيل احترامهم.

وليس يحق لمن لا يرد نفسه عن خطراتها ونزواتها ورغائبها.. ولا يبذل أي جهد لمقامة هوى النفس ونداء الغرائز الوحشية، أن يبكي على افتقاده لاحترام من حوله له.. أو ينفس على من أخذوا أنفسهم بالحرمان من كثير من اللذائذ والمتع المتاحة والشهوات الجامحة، لظفرهم دونه باحترام الآخرين لهم.

فالمثل الإنجليزي القديم يقول إن المرأة التي تتقاضى أجرها لا يحق لها، أن تطالب بالزواج!

وكذلك في رأيي الإنسان الذي لا يرد نفسه عن متعة سانحة.. أو لذة عابرة.. أو مال محرم، أو أي إغراء آخر من إغراءات الحياة، العديدة، فإذا كنت يا سيدتي قد فقدت معظم احترامك السابق لزوجك بعد أن تكشفت لك نزواته وزيجاته السرية العديدة السابقة، فلست أستطيع أن ألومك على ذلك، لكنني أرجو لك فقط أن تحتفظي له بما بقي في نفسك من ذبالة هذا الاحترام لكى يمكن البناء عليه من جديد إذا أثبت بسلوكياته في قادم الأيام جدارته بذلك، ولكي يتوافر لكما الحد الأدنى من العلاقة الصحية بين زوجين وأبوين لعدد من الأبناء يحتاجون إلى تأكيد القيم لديهم، والحفاظ على رموز الأب والأم والمثل العليا لديهم، ولا بأس إلى جانب ذلك بأن يشعر المخطئ بأن لأفعاله ثمنا في الحياة واجب الأداء، وأنه لا ينجو أحد من دفعها فكما استمتعنا بلذة المغامرة والنزوة وبالاستجابة لهوى النفس وخطراتها علينا أيضا أن ندفع الثمن العادل لكل ذلك في علاقتنا بمن استجبنا لغرائزنا على حساب وفائنا لهم وعهدنا معهم..

فإن كان في موقف زوجك منك شيء يستحق الاعتبار، فهو فقط في إنه كان «يتزوج» ولا يتورط في علاقات محرمة ومرفوضة دينيا وأخلاقيا حتى ولو كان زواجه العرفي السري هذا لا يختلف كثيرا عند معظم الفقهاء عن العلاقة الخاصة

السرية، لافتقاده لركن الإشهار والإعلان وغير ان ذلك أيضا لا يعفيه من خيانة العهد معك.. ولا من حرمانك من حق الاختيار بين الاستمرار معه وهو زوج معه وهو زوج لأخرى عرفيا أو طلب الانفصال عنه سواء أكان هذا الارتباط عرفيا أو رسميا.

أما نزوات الرجال هذه التي يبرر بها خياناته السابقة لك فهي ليست صكا للغفران ينال صاحبه العفو والمغفرة بمجرد إشهاره في وجه من يحاسبه عن سلوكياته، ولا هي امتياز خاص بالرجل يشبع به شهواته كلما بدا له أن يفعل ذلك، ثم يتوقع من الآخرين بمجرد الاحتجاج به أن يغفروا له ما فعل ويتجاوزوا عنه ولو أدرك من يتشدق بها - لتبرير ضعفه عن مغالبة هوى النفس - معناها الحقيقي، لما سعد به ولما ارتضاه لنفسه.

ففي قواميس اللغة إن كلمة نزوة مشتقة من الفعل «نزا» أو «انتزى» وكلاهما بمعنى وثب أو تسرع، وهي قرينة لكلمة مماثلة لها تماما في المعنى انه قد هي «بدَوات» فيقال إن فلانا ذو بدوات بمعنى يسنح له الرأي «فجأة» فيتبعه دون ترو، والقاسم المشترك بين الكلمتين هو التسرع والخفة والطيش وعدم تقدير العواقب عند الإقدام على الفعل، فهل في هذا المعنى ما يشرف أحدا لكي يتمسح به ويدعيه لنفسه ويبرر به أفعاله وسلوكياته؟

الحق إنها ليست نزوات الرجال ولا النساء، لكنه بطر الإنسان وتطلعه الدائم لنيل الحد الأقصى من المتع والأشياء كلما أتيح له ذلك كما أنه أيضا اعتقاده العجيب بأنه كائن فريد مميز يحق له أن ينال من المتع ما يشاء ولو أضير بذلك بعض أقرب البشر إليه.

ولاحد لطمع الإنسان يا سيدتي ولا لمطالبه من الحياة، ولعل ذلك قد يفسر لك تساؤلك المرير عن معنى هذا الجحود لنعم الله الجليلة على الإنسان وتطلعه للمزيد منها حتى ولو أدى سعيه إلى ذلك الى تبديده لبعض ما غمره به ربه من نعم جليلة كان حريا به أن يشكر ربه عليها كثيرا.

غير أن الحياة بالرغم من كل ذلك تفرض علينا في كثير من الأحيان أن نتفهم بعض هذا الضعف البشري ونتجاوز عما نستطيع احتماله من الهنات والعثرات لكي تظل السفينة طافية فوق ماء النهر، ومادام زوجك قد رضخ لمطلبك بطلاق هذه الفتاة واستجاب لمطالب والدك لتأمين مستقبلك ماديا وأكد تمسكه بك ورغبته فيك فلا بأس بأن تحاولي احتواء الموقف وتجاوزه طلبا للمصلحة المشتركة بينكما وهي الأبناء، وطلبا للسلام مع شريك الحياة الذي لم تفقدي حبك له ويصعب إن لم يستحل فصم الخيوط المتشابكة والمتلاحمة بينكما على مر السنين.

ومستقبل الإنسان دائما أمامه وليس وراءه، فإذا التزم زوجك بالإخلاص لك وتجنب ما يثير شكك فيه أو في تجدد ضعفه أمام هوى النفس وغرائزها فلا بأس بذلك ولننس معا أو نحاول بقدر الإمكان نسيان ما كان من أمره معنا، ولتستفيدي أيضا بدرس التجربة.. فتحاولي معرفة دوافعه لهذه الزيجات السرية المتعددة على مدى رحلتك معه، لتحاولي تحصين «الثغور» التي تتسلل منها هذه النزوات

العابرة إلى حصونه، ولتزيدي من التصاقك وارتباطك به لكيلا يجد «منفذا» جديدا للتطلع إلى الأخريات، ولا تغفلي مرة أخرى عنه اعتمادا على الثقة الغافلة فيه، فيستجيب من جديد إلى نداء المغامرة والغرائز إذا أمن المخاطر فبعض البشر يا سيدتي قد «يضطرون» إلى الاستقامة الخلقية حين يتعذر عليهم العبث.. أو حين يتخوفون من عواقبه الوخيمة على حياتهم.

ولا بأس بأن نعين الإنسان على نفسه ونسد عليه منافذ العبث والمغامرة.. أو نضيقها عليه بقدر الإمكان لكيلا تغريه بها ويستجيب لها.

والثقة المبصرة في الآخرين من حسن الفطن، على أية حال، وهي شيء آخر خلاف الثقة الغافلة التي تعمي المرء عن بوادر الخطأ ومقدماته، فلا يتدخل في الوقت المناسب لوأده وحماية أعزائه منه.

ففكري في كل ذلك يا سيدتي.. وامنحي نفسك فرصة جديدة مع زوجك لتجاوز هنات الماضي.. والحفاظ على الحاضر والبناء للمستقبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

طائر الحرمان

لم أكن أتخيل أنه سوف يأتي يوم أكتب لك فيه مثل هذه الرسالة، ذلك أن من يعرفونني يعرفون عني قدرتي على اتخاذ القرار وحل مشاكل العمل، لكنه فيما يبدو فإن هذه القدرة على الحسم واتخاذ القرار في العمل قد لا تمتد إلى حياة الإنسان الشخصية في بعض الأحيان.

فأنا يا سيدي رجل أعمال شاب أعمل في مجال السياحة، وناجح جدا في عملي والحمد الله بمقاييس النجاح في هذا الزمن، فأمتلك وأساهم في بعض المشروعات السياحية وأدير بعضها الآخر بنفسي. ولقد استشهد والدي في حرب يونيو سنة 1967، وأنا ما زلت غلاما صغيرا، فقامت أمي على تربيتنا على أكمل وجه وعانت الكثير وتحملت الكثير، وهي تقوم بدور الأم والأب في حياتنا، وكبر أخي الأكبر وتزوج من سيدة كانت تشعر - هداها الله - بالغيرة الشديدة من أمي لما لها من مكانة عظيمة في نفوسنا ونفوس المحيطين بنا بسبب كفاحها معنا، فراحت تلح على أخي حتى أقنعته بالهجرة من مصر وهاجر معها وتركني أنا وأمي قبل أن أنهي دراستي الجامعية واقتصرت علاقته بنا على الاتصالات التليفونية التي يجريها غالبا من مقر عمله حتى لا تدري بها زوجته وتعرف أنه يداوم على الاتصال بنا كثيرا.

وكنت خلال دراستي الجامعية أعمل في شهور الاجازة وأدخر ما أكسبه لأبدأ به حياتي العملية بعد التخرج، فتخرجت في كليتي وبدأت عملي في مجال السياحة، ووفقني الله فانتقلت من نجاح إلى نجاح وتحول المبلغ الصغير الذي بدأت به رحلتي إلى ثروة أشكر الله عليها وأحمد له فضله، وبدأت أفكر في الزواج فكان كل ما يشغلني هو ألا أكرر تجربة أخي بعد زواجه مع أمي، وألا أتزوج من انسانة تكرر قصة زوجته معها، خاصة أن أمي تعتبر أن الله سبحانه وتعالى قد كافأها على كفاحها معنا بنجاحي في الحياة العملية وتوفيقي فيها.

وخلال هذه الفترة تعرفت على شابة رائعة بكل المقاييس تعمل بإحدى الهيئات الأجنبية، وتجمع بين ثقافة المرأة الغربية واهتمامها بمظهرها، وبين تدين المرأة الشرقية وأصالتها وتزوجنا بعد خطبة قصيرة وبدأنا حياتنا الزوجية في بيت جميل قبلت أمي بعد إلحاح شديد من جانبي أن تشاركنا فيه.

وسعدت بزوجتي التي تشعرني رغم ثقافتها وعملها المرموق بأنني السيد أحمد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فضلا عن أنها تحب أمي وترعاها إلى حد أنها قد عرضت عليها أن تستقيل من عملها المهم لتتفرغ للعناية بها بعد أن اشتد عليها المرض.

لكن الإنسان لا يحصل دائما على كل ما يتمناه يا سيدي، كما تقول كثيرا في ردودك، فلقد تزوجنا منذ ثماني سنوات وتوافرت لنا كل أسباب السعادة وراحة القلب والبال من عشرة جميلة هادئة وحب متبادل وعطف يظلل حياتنا وحياة مريحة من الناحية المادية.. لكننا رغم كل ذلك لم نرزق بأولاد، وقد حاولنا وما

زلنا نحاول الانجاب بمساعدة أفضل الأطباء في العالم في هذا المجال، ولقد اتفقوا جميعا على أنه لا يوجد لدي أو لدى زوجتي عيب أو مانع ملموس يحول دون الحمل، لكنها إرادة الله التي يجب أن نرضى بها وبما قسمه لنا في حياتنا، ولقد امتثلت لهذه الارادة الالهية ورضيت بها فكان ذلك هو السبب في صفاء نفسي حتى خلال الفترات القليلة التي قد يجتاحني فيها بعض الحزن.

أما زوجتي فإن الأمر بالنسبة لها يختلف.. فلقد أصبحت في الفترة الأخيرة حزينة دائماً على خلاف مرح شخصيتها المعهود، وعصبية في كثير من الأحيان على خلاف هدوء طبعها، ربما بسبب الآثار الجانبية لبعض الأدوية التي وصفها لها الأطباء، بالإضافة إلى ملاحقة بعض الأقارب والأصدقاء لها بالسؤال عن الحمل، وبالنصائح التي تقلب حياتنا إلى جحيم لبعض الوقت.. ناهيك عن عصبية فترة الترقب الشهرية التي تصاب بعدها بخيبة أمل شديدة تستغرقها في دوامتها لبضعة أيام.. انني أحاول مساعدة زوجتي والتخفيف عنها بكل ما أستطيع من جهد، لكن أسفاري كثيرة ووجودي معها في البيت يكون لفترات قليلة، وقد أنشغل خلالها أيضا ببعض مشاغل العمل، ولن أستطيع أن أنفذ نصيحتك إذا نصحتني بأن أقضي معها وقتا أطول مع ادراكي أن ذلك جزء مهم من الحل لكن ظروفي أقوى مني في الوقت الحالي بسبب التوسعات التي قمت بها في العمل ولأنني لن أستطيع التخفف من مسؤولياتي هذه قبل عام أو عامين على الأقل فبماذا تشير عليّ أن أفعل مع زوجتي لكي أخفف عنها أحزانها مع مراعاة ظروف عملي هذه.. وهل تستطيع أن توجه إليها كلمة تساعدها بها على تقبل الأمور والرضا بما أراده وسوف يريده لنا الله سبحانه وتعالى.. وأخيرا فإنني أقول لمن يتصارعون حول المال وحده ان المال ليس كل شيء في الحياة، وان سعادة الإنسان لا يحققها إلا الرضا بما أراده الله للإنسان، ولينظر من لا يصدقني في ذلك إلى حال زوجتي التي تبكي كثيرا وتشرد كثيرا ولا يخفف من حزنها شيء رغم توافر كل مطالب الحياة المادية لها.. ورغم رخاء حياتنا معا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لاحظت خلال اقترابي من هموم الآخرين وأحزانهم لسنوات طويلة، امتثال كل من الزوجين اللذين حرمتهما الأقدار من الانجاب قد يختلف أحيانا في العمق والأثر أحدهما عن الآخر، وفي كل الأحوال فلقد لاحظت أيضا أنه حتى بالنسبة للزوجين اللذين يتفقان في عمق امتثالهما لمشيئة ربهما فيما يتعلق بالإنجاب، فإن الزوج قد يتقبل حياته ويتواءم معها ويتخلى نفسيا عن التعلق بأمل الانجاب ادراكا منه لاستحالته وقبولا بأقداره، أما الزوجة فإنها حتى وهي تقبل بحياتها بغير انجاب وترضى عنها نسبيا، فإنها في كثير من الأحيان قد لا تتخلى في أعماقها عن الأمل الغامض فيه وقد لا تنجو في أحيان أخرى من آثار تفاعلات هذه الرغبة المكتومة

لديها على حياتها الزوجية إلا بعد أن يوغل قطار العمر في طريقه وتتأكد نهائيا من استحالة هذا الأمل المعذب.

وفي تقديري فإن ذلك لا يرتبط فقط بقوة غريزة الأمومة لدى المرأة، وانما يرتبط أيضا بإحساسها بالأمان في علاقتها بزوجها وبهواجسها بشأن احتمال تأثر حياتها الزوجية بعدم الانجاب في المستقبل أو احتمال شرود زوجها عنها في بعض مراحل العمر المقبلة طلبا للإنجاب في حياة زوجية أخرى

ولهذا فإن اشعار الزوج لزوجته بالأمان والثقة في الغد عامل جوهري مهم من عوامل مساعدتها على تقبل حياتها بغير إنجاب والتماس التعويض عنه في جوانب حياتها العاطفية الأخرى مع زوجها.

وفي هذا المجال فإن الكلمة الشاردة من جانب الزوج عن أمله في الانجاب حتى ولو كانت من قبيل الدعابة تؤلم مشاعر زوجته المحرومة أشد الإيلام وتوقظ لديها هواجسها الكامنة بشأن استمرار حياتها الزوجية مع زوجها، بل انه حتى مغالاة الزوج في الاهتمام بأطفال الآخرين قد تترك أثرا عكسيا لديها يشعرها بعمق إحساس زوجها بالحرمان وبالقلق الغامض ازاء تطلعه المحروم للأطفال والانجاب. ولأن الأحزان المشتركة ينبغي لها أن تقرب بين من يكابدونها وليس العكس، فإن مثل هذين الزوجين ينبغي أن يحرص كل منهما أشد الحرص على مشاعر شريك حياته، وعلى أن يشعره في كل لحظة بسعادته معه واكتفائه به ورغبته الأكيدة في مواصلة الرحلة معه حتى نهاية العمر، وكلما ترسخ إحساس الاطمئنان للغد في نفس الزوجة ازداد تقبلها لواقع حياتها وازداد احساسها بالأمان مع زوجها.

ولا شك أنه من حق كل إنسان أن يتطلع إلى استكمال جوانب حياته الناقصة إذا كان ذلك متاحا وميسورا، لكنه ليس من حقه أبدا أن يغالي في تركيز أنظاره على ما ينقصه وحده فيحول ذلك دون أن يستشعر أهمية ما بين يديه ودون أن يرضى عما منحته الأقدار واسبغت به عليه من نعم أخرى عديدة، ولأن الرضا لمن يرضى والسخط لمن سخط كما جاء في مضمون الحديث الشريف، فلن يسعد بحياته في النهاية إلا من يقبل بها وبنواقصها التي تختلف من إنسان لآخر.

كما لن يسعد بها أيضا إلا من يتعلم بتجربة الأحزان أن يبتسم لألمه الشخصي كما ينصحنا بذلك الكاتب الأمريكي مارك توين أي أن يقبل به ويبتسم - رغم ذلك كله - ابتسامة الرضا بحياته ولن يسعد بها كذلك من يتعلق بالأمل المستحيل الذي لا ترشحه ظروفه لبلوغه مهما كابد من عناء، فيعذب نفسه بالتطلع إلى ما لن يدركه أبدا وبأحزان خيبة الأمل عند كل فشل.. لهذا فقد قيل قديما ان الرجاء عبد واليأس حر.. لأن الإنسان حين يرجو ما يتطلع إليه فإنه يسترق نفسه لما يأمل فيه، ويترقب تحقيقه خائفا مرتعبا.. في حين انه لو سلم بإرادة الله وكف عن التطلع إلى ما لم تشأه له الأقدار لتحررت طاقته النفسية من الأحزان والترقب وهواجس الانتظار وخيبة الرجاء.

ونصيحتي الوحيدة لزوجتك الفاضلة هي ألا تسمح لهواجس الترقب والخوف من المستقبل بأن تفسد عليها حياتها وأمانها وسعادتها وأن تثق بربها ونفسها ويومها وغدها وأن تردد لنفسها دائما ما قاله أحد الصالحين في ظروف مماثلة وهو: الخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى.

أما أنت يا صديقي فإن كانت ظروف عملك لا تسمح لك الآن بأن تطيل من أوقات وجودك إلى جوار زوجتك لتخفف أحزانها وتطرد عنها أشباح القلق والاكتئاب والهواجس.. فإنك تستطيع على الأقل، وإلى أن تسمح لك الظروف بقضاء وقت أطول معها، أن تجعل اقترابك منها أكثر عمقا من ذي قبل حتى وأنت بعيد عنها جغرافيا، فالاقتراب على مستوى السطح لا يحقق شيئا كثيرا في ترسيخ التفاهم بين الشريكين، وانما يحقق ذلك ما يسميه بعض خبراء العلاقات الزوجية الآن، بالاقتراب عن عمق، أي بتأكيد المشاعر لشريك الحياة في كل حين، وتأكيد اعتزاز الإنسان به وإشعاره بأنه شخص شديد الأهمية في حياته وانه لا يزال يرغبه ويسعد بقربه ويفتقده إذا غاب عنه ولا يتصور حياته بغير وجوده فيها ذات يوم.

وهذا هو الاقتراب في «العمق».. وليس في «المكان» وهو لا يحتاج إلى تقارب المسافات الجغرافية ولا الوجود في الجوار لفترات طويلة وانما إلى تقارب القلوب والنفوس والمشاعر، وقد تغني لحظة واحدة منه عن ساعات طويلة من الاقتراب في المكان لا يكون خلالها بين الشريكين ما يجمعهما على مستوى السطح من قرب المكان وطول الزمان.. فحاول ذلك يا صديقي مع زوجتك.. وضاعف من جهدك لإشعارها بالأمان والاطمئنان والثقة في الغد، ولسوف تنقشع سحب الهموم والأحزان عن سمائكم المشتركة تبعا لذلك بإذن الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرة الاستعلاء

أنا موظف بمصلحة حكومية في الأربعين من عمري، جمعت الأقدار بيني وبين فتاة من معارف أسرتي، وارتبطنا بخطبة استمرت حوالي عامين تمكنت خلالها وبالديون والأقساط من تدبير تكاليف الزواج والمسكن، وتزوجنا وبدأنا حياتنا الزوجية، ونحن نحلم كغيرنا بالسعادة والامان، وأنجبنا ثلاثة أطفال، ثم بدأت منازعات الحياة الزوجية المألوفة بيننا؛ بسبب سخط زوجتي الدائم على مستوانا المادي.. وتطلعها لحياة أفضل.

وكان أكثر ما يثير زوجتي، هو أن لي شقيقاً ميسورا، يعمل بالأعمال الحرة، ويعيش في بحبوحة من الرزق، فحثتني مرارا على أن أستقيل من وظيفتي؛ لأعمل معه بالأعمال الحرة، وضغطت عليّ كثيرا من أجل ذلك، وكلما قلت لها أنني لا أفهم في الأعمال الحرة ولا أمل لي فيها، وأن كل إنسان له رزقه المقدور، وعليه أن يقبل به، ثارت عليّ واتهمتني بالكسل والتخاذل، وتساءلت ماذا تزيد عنها فلانة «زوجة أخي»؛ لكي تعيش حياة أفضل منها؟ ثم تطالبني بتوفير كل ما تحتاج إليه هي والأبناء، وترفض ان تسهم في ميزانية البيت بأي جزء من مرتبها، مع إنني لا أقصر في العمل، وأعمل ساعات إضافية كل يوم، ومجال عملي يتيح لي أبواب الرزق الحرام، ولكني أرفضه وأخشاه، وأخاف منه على أبنائي.

كما أنني لست في النهاية معدماً، فقد انتقلت خلال سنوات الزواج بزوجتي وأبنائي من شقة قديمة مؤجرة في حي شعبي إلى شقة تمليك لا بأس بها، اشتريتها بالتقسيط على عشرين سنة، عن طريق العمل، واشتريت كذلك سيارة مناسبة جديدة أحمل بها زوجتي كل صباح إلى عملها، وانتظر خروجها من عملها؛ لأعيدها إلى البيت، حتى ولو كنت لم أنته من عملي بعد، كما أني قد عملت أيضاً لمدة عام خارج مصر، ورجعت إلى عملي في بلدي قبل أن أفقده، وإلى أبنائي، قبل أن يطول افتقادهم لي.

ورغم ذلك ظلت زوجتي ساخطة ومتذمرة؛ لأنها كانت تريدني أن أغيب عن أبنائي بضع سنوات، وليست سنة واحدة، وراحت تتوعدني بأنها ستهجرني، إن لم أتحرك وأفعل شيئاً يرفع من مستوى حياتنا.. ناهيك عن سوء عشرتها لي ومخالفتها لإرادتي في كل شيء، من أكبر الأشياء إلى أتفهها.. فكل ما أريده ترفضه، وكل ما أراه ترى هي عكسه دائماً، وهكذا..

ومع ذلك فلقد تحملتها، وتمسكت باستمرار الحياة معها من أجل أبنائنا الصغار إلى ان بدأت زوجتي تطالبني بالطلاق بإصرار، وتغريني بأنها سوف تتنازل عن كل حقوقها؛ في سبيل الحصول عليه، وتحيّرت في أمرها طويلاً، ورفضت منحها الطلاق أملاً في ان تراجع نفسها، وسألتها مرارا: وما ذنب هؤلاء الأطفال الصغار في أن يتمزقوا بيني وبينك بعد الطلاق؟ فكانت تجيبني بأنه لا ذنب لهم، ولكن هذا هو قدرهم. وسوف يحيون ويتجاوزون الأزمة، كما فعل غيرهم من قبل.

وواصلت الضغط عليّ لمنحها الطلاق؛ حتى طلقتها مرغما وهجرت بيت الزوجية، ورجعت الى بيت أسرتها.. ولم أقبل في الحقيقة طلاقها، إلا حين أسر إلى أحد أقاربها بأنها تنوي الزواج من زميل لها في العمل ميسور الحال، وقادر على إسعادها كما تتصور، فطلقتها ونفسي تغص بالمرارة.. وهونت الأمر عليّ بأنه أكرم لي أن أطلقها، حتى ولو تعذب أبنائي بالطلاق، من ان ترتبط برجل غيري، وهي ما زالت زوجتي، وتجرعت الألم صامتا ولم أنازعها في شيء بعد الطلاق، ولم أضع العراقيل بينها وبين أطفالها، وتذكرت دائما ما قرأته لك نقلاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أن خير ما نعاقب به من لم يتقوا الله فينا، هو أن نتقي الله نحن فيهم، واتقيت الله بالفعل فيمن لم تتق الله في ولا في أبنائي وابنائها، وسلمت لها بما أرادت.

وترقبت أن تتزوج الآخر الذي هجرتني من أجله بسبب ما يعدها به من حياة أرقى وأفضل، فاذا الشهور تمضي بها وهي بلا زواج في بيت أهلها.. وإذا بمن كنت أوصلها إلى عملها بسيارتي كل صباح، تذهب إلى عملها بالميكروباص، لأنها لا تستطيع تحمل نفقات سيارة الأجرة كل يوم وشعرت - لا أخفيك ذلك - بشيء من الشماتة فيها.. وتساءلت: وأين الآخر الذي وعدها بجنات النعيم من بعدي؟ ثم علمت أنه خذلها ولم يف بوعده لها.. ومرة أخرى شعرت بشيء أشد من الشماتة فيها.. ورجوت الله إن يعيد إليها عقلها؛ لكي تعرف قيمة من كان يطلب سعادتها ورضاءها بلا جدوى.

ومر عام على الطلاق.. فإذا بي أعلم أن زوجتي السابقة قد تزوجت من زميلها، وأنه احتاج إلى عام طويل من التفكير والتردد والضغط عليه؛ لكي يتزوجها..

وكما كنت صريحا معك، وقلت لك إننى قد شمت فيها حين خذلها، فلابد أن أكون صريحا معك أيضا، وأقول لك إنني شعرت حين عرفت ذلك بإحساس مؤلم من الضيق والخجل.. والابتئاس، لا أعرف له تفسيرا.. ثم هونت الأمر على نفسي بعد ذلك بأن هذه هي إرادة الله، وان الحياة لن تتوقف بزواج زوجتي السابقة من غيري.. وإنني أستطيع أنا أيضاً الزواج من أخرى أجد لديها ما لم أجده لدى أم أبنائي من حب وتقدير وحنان.

وانشغلت بعملي أكثر من أي وقت سابق؛ لأنتشل نفسي من أفكاري، وواصلت التعامل مع زوجتي السابقة، فيما يتعلق بأبنائنا ورؤيتهم ومطالبهم باحترام، وبلا مشاكل من أي نوع..

ولاحظت حين رأيتها بالمصادفة بعد زواجها عند ذهابي بأولادي إلى بيت أسرتها، أنها تنظر إليّ نظرة الاستعلاء والتفوق، مع أننا لم نتبادل سوى كلمات المجاملة العادية، ورجعت من هذه الزيارة عاقدا العزم، أكثر من أي وقت مضى على أن أتزوج أنا الآخر، وأهتم بحياتي الخاصة..

وبدأت أتلفت حولي باحثاً عن زوجة، وصارحت أهلي برغبتي وبدأوا يعرضون عليّ ترشيحاتهم من السيدات المناسبات، وأناقش ظروف كل مرشحة على حدة، وأفكر فيها بعمق وروية، وحين استقر رأيي على إحداهن، وهممت بأن أطلب من

شقيقتى مفاتحتها برغبتي في الارتباط بها، فوجئت بزميلة زوجتي في عملها تتصل بي وتطلب مقابلتي على وجه السرعة، والتقيت بها فإذا بها تحمل رسالة من زوجتي السابقة بأنها ترغب في العودة للحياة معي مرة أخرى؛ لأنها لم تجد السعادة، مع زوجها الثاني

ورغم إحساسي بالارتياح، بل وبشيء من الزهو لهذه الرسالة المفاجئة... فإنني استمهلت زميلة زوجتي بعض الوقت؛ للتفكير في عرضها قبل الرد عليها، واستغرقت أياما كاملة في التفكير فيه ليلاً ونهاراً، ووجدتني في الموعد المحدد لإبلاغها بردى، أجيبها بالاعتذار عن عدم قبول عودتها لي مرة أخرى! لماذا؟ هل هي شهوة الانتقام؟ هل هي ذكريات التعاسة والخلاف معها؟ هل هي رغبة التشفي فيها؟ لا أعرف على وجه التحديد، والله عليم بما أقول، فلقد بكيت بمرارة، حين أرغمتني على طلاقها.. وشعرت بالهوان والضياع؛ حتى كنت استجديها الاستمرار ومواصلة الحياة معي، وتمنيت في أعماقي بعد طلاقها بأسابيع وشهور، أن ترجع إليّ نادمة.

بل وتخيلت نفسي مراراً، وهي ترجع إليّ باكية، وتقول لي إنها قد أدركت الآن خطأها في حقي، وتريد أن تبدأ معي من جديد، فأتردد في القبول قليلا.. ثم لا ألبث أن أقبل راجيا أن تكون قد تعلمت الدرس واستفادت من أخطائها.. فلماذا أرفض الآن يدها الممدودة إليّ؟. لم أجد جواباً صريحا عن هذا السؤال إلى الآن

ولعلك تساعدني في التوصل إليه.. ولقد اتصلت بي صديقتها مرة أخرى فأكدت لها من جديد رفضي.. وعجبت حين أبلغتني برد فعل زوجتي السابقة لرفضي عودتها إذ قالت لها متعجبة: وما ذنب الأطفال الصغار في أن يتمزقوا بيني وبينه؟

وتذكرت على الفور ما كانت تجيبني به، حين أقول لها هذه العبارة المؤلمة نفسها، وأنا أحاول إقناعها بالعدول عن طلب الطلاق، وتعجبت كثيراً من تغير الأحوال والأقوال، فكأنما قد انعكست الآية وتبادلنا الأدوار، ثم التقيت بها للحظات عابرة، خلال زيارة الأبناء لها؛ ففوجئت بها تنظر إليّ نظرات غريبة صامتة، كأنما تتعجب بها من أني أرفضها، وأنا الذي كدت ان أقبل قدميها؛ لكيلا تهدم بيتنا وتهجره، كما لاحظت أيضا أن نظرة الاستعلاء والتفوق، التي كانت تلمع في عينيها في اللقاءات السابقة قد انطفأت، وحلت محلها نظرة واجمة ساهمة.

ولكننا رغم ذلك لم نتبادل كلمة واحدة حول الموضوع، وانصرفت وأنا أفكر في أمرها، وفى أمري معها.

إن صديقتها ما زالت تتصل بي من حين لآخر، وتسألني: أمازلت عند رأيي؟ فأجيبها الإجابة نفسها، ولكني أعترف لك ايضا أننى أتمنى في أعماقي ألا تتوقف عن الاتصال بي، وعن متابعة سؤالي عن موقفي من زوجتي السابقة.. لكيلا أفقد هذا الخيط الذي يربطني بها.

فماذا تفسر هذه الرغبة الدفينة عندي؟ وهل تراني أتطلع لأن تستمر صديقتها تلاحقني؛ لكي أعطيها بعد فترة الضوء الاخضر بالقبول؟ وهل تنصحني بقبول

عودة زوجتي السابقة إليّ بعد كل ما فعلت بي.. علما بأني قد بدأت ألمس بعض التغيرات الإيجابية في شخصيتها، من خلال حديث صديقتها عنها، ومن خلال أقوال بعض أفراد أسرتي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أما وأنك تود في أعماقك أن تستمر صديقة زوجتك السابقة في ملاحقتك والاتصال بك وحثك على قبول عودة أم أبنائك إليك؛ فلأنك ترغب بالفعل في أن ترجع زوجتك السابقة إلى بيتك وحياتك وأطفالك، ولكنك تنكر على نفسك هذه الرغبة، وتخجل من الاعتراف بها.. وتتمسك بالرفض، لا نفورا من شخص زوجتك السابقة أو زهدا في عودتها إليك، وإلى أطفالها، وإنما انتصارا لكرامتك الشخصية الجريحة، وثأرا لمعاناتك المريرة التي تجرعتها حين تمسكت بالطلاق منك وحين تزوجت غيرك

وبقدر عمق الجراح، يطول وقت الشفاء.. والمؤكد هو أن نفسك لم تشف بعد من جراحها، وأنك مازلت في مرحلة النقاهة مما أصاب النفس من شروخ؟ والحق هو أن أعمق هذه الشروخ ليس هو شرخ إصرار زوجتك على الانفصال عنك، وإنما شرخ زواجها من آخر نما إلى علمك أنها كانت ترتب للزواج منه بعدك، بدعوى أنه أقدر على توفير الحياة اللائقة بها منك، فهذا هو الجرح الحقيقي يا صديقي، الذي يحول بينك وبين الصفح والنسيان خلال وقت قصير.

ولو لم تكن زوجتك السابقة قد تزوجت هذا الشخص بالذات، أو لو لم يكن هو موجوداً من الأصل في خلفية الصورة من البداية، لما احتاج الأمر منك إلى تردد طويل في قبول رجوعها اليك، فأنت كأي أب، حريص على مصلحة أبنائه الصغار، يسعدك أن ترجع أمهم إليهم، وأن تقر بخطئها في حقك، وأن تعترف لك بقدرك الذي أنكرته عليك من قبل، ولكنك «كزوج» تشعر بالمرارة؛ لأن يكون سبب فراقها عنك وعن أطفالها هو رجل آخر، حتى ولو كانت قد تزوجته بعد ذلك، وحتى أيضا لو كانت قد اكتشفت وهم السعادة الذي طلبته لديه، بعيدا عنك وعن أبنائها!

ومن ثم.. فليس غريبا عليك أن تتردد بين الرفض الصريح المعلن.. وبين الرغبة الباطنية الخفية في أن تواصل زوجتك السابقة سعيها إليك ورغبتها فيك.. فالرفض هنا هو رفض الزوج و «الرجل»، الذي يأنف من التجاوز بسهولة عن نقض العهود وخيانة الوفاء. والرغبة هي رغبة الأب، الذي يهفو قلبه إلى استقرار أطفاله بين أبويهما، وما زال يأمل في أن يتجاوز الحواجز النفسية ويستعيد لهم حياتهم الآمنة المستقرة.

غير أني - على الناحية الأخرى - لا أرى في سعيها إليك ما يشير إلى أنها قد تعلمت من أخطائها شيئا جديرا بتسجيله لها، أو أنها قد اكتسبت خبرة جديدة ثمينة

من تجاربها السابقة. بل لعلي أراها فيه تكرر به الخطأ الأخلاقي نفسه، الذي وقعت فيه من قبل، حتى ولم تخرج فيه عن حدود العرف المحفوظ، وهو أن تسعى - وهي في عصمة زوج تحمل اسمه - إلى رجل آخر، وتتفاوض معه عن طريق وسيط في الارتباط به، وتكرارها لهذا الخطأ حتى في حدود العرف المحفوظ ينبئ بأنها لم تتغير كثيرا إلى الأفضل من هذه الناحية على الأقل؛ لأن سعيها غير المباشر إلى رجل آخر، عدا زوجها - حتى ولو كان والد اطفالها - يتناقض بالضرورة مع أمانتها كزوجة، ومع إخلاصها لمن ارتبطت به.

فإذا كانت صادقة العزم حقا على أن تكفر عن خطئها السابق في حقك، فليكن أول ما تقنعك به بصدق تغيرها، هو أن تعترف بلا أخلاقية هذا السلوك من الأصل، وأن تكف عن تلمس الخطى لنفسها قبل الانفصال عمن ترتبط به.

والإنسان الذي لا يتعلم من أخطائه ولا تجاربه لا أمل فيه ولا رجاء، والمرء ليس مطالباً فقط بأن يتعلم من أخطائه وتجاربه الشخصية، بل ومن أخطاء البشر جميعا وتجارب الإنسانية كلها، وفي ذلك يقول لنا الشاعر الألماني العظيم جوته إن «من لم ينتفع بدروس ثلاثة الآف عام من عمر البشرية، لم يتجاوز زاده من الخبرة الإنسانية خبرة يوم بيوم، ولسوف يكرر أخطاءه أيضا يوما بعد يوم».

وبقدر الخطأ، يكون حجم التكفير عنه يا صديقي.. فإذا كانت زوجتك السابقة قد تنبهت إلى أخطائها، واستيقظت أمومتها، وتنبه إحساسها بواجبها الديني والإنساني تجاه أبنائها.. فعليها أن تبذل في إقناعك بذلك، وفي السعي للعودة اليك، الجهد نفسه، الذي بذلته من قبل في مطالبتك بالطلاق والإصرار عليه، إن لم يكن أكثر! وإذا كانت لم تسعد بحياتها الشخصية مع من هجرتك للارتباط به، فلتطلب الطلاق منه، ولتحصل عليه بغض النظر عن احتمال عودتها إليك أو رفضك لذلك، ولتقبل بذلك أيضا ثمنا عادلاً لخطأ هجرها لأطفالها وتمردها على زوجها، الذي لم يقصر في محاولة استرضائها والحفاظ عليها.

ثم فلتسع إليك بعد ذلك، راجية أن تتجاوز عما جرى منها، حرصاً على مصلحة الأطفال، وأملاً في تخطي المرارات ومواصلة الحياة إلى بر الأمان.. فهذه هي الخطوة الأولى على طريق التكفير عن الأخطاء.. والاستفادة بدروسها، ولسوف يعينك ذلك بالتأكيد على اتخاذ القرار الملائم، الذي يحقق صالح الأبناء، ومصالح الطرفين بغير حساسيات ولا مرارات سابقة..

إما أن تتفاوض معك، وهي في عصمة هذا «الآخر» على العودة اليك مرة أخرى؛ لأنها لم تجد السعادة معه أو لم تجدها وهو الأرجح، بعيدا عن أطفالها فتقبل أنت بذلك على الفور، وترجع المياه إلى مجاريها بلا عناء هكذا، فليس ذلك مما يعينها على استيعاب درس التجربة ولا على الاستفادة منها، ولا عجب في ذلك، ولا غرابة؛ لأن «أسرع الاشياء نموا أسرعها فناء، وأبطأها حدوثا أبطؤها نفاذا، وما دخل عسيرا لم يذهب يسيرا» كما يقول لنا الإمام ابن حزم الأندلسي... فاطلب من تلك الوسيطة، أن تبرهن زوجتك السابقة على أنها قد تعلمت حقا من تجربتها بالكف عن هذا الخطأ الاخلاقي، الذي تمارسه الآن بالتفاوض معك عن بعد، وبأن

تتخذ قرارها بشأن حياتها مع زوجها الحالي، بغير شروط مسبقة، ولا ضمانات من جانبك، ثم فلتفكر أنت بعد ذلك - إن هي فعلت - فيما تتخذه بشأنها من قرارات مراعيا في ذلك ما يحقق صالح أطفالك قبل كل شيء، وما يلبي أيضا رغباتك الحقيقية، حتى ولو لم تعترف بها بعد مرور الفترة الملائمة لتجاوز المرارات.. والصفح عن الأخطاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ميراث الحقد

أنا فتاة في التاسعة عشرة من عمري، أدرس بإحدى الكليات المرموقة، ويشهد لي الجميع بحسن الخلق والأدب الجم، وأعامل الجميع من حولي بحب واحترام، ماعدا شخصا واحدا، أرجو ألا تكون قاسيا عليّ حين تعرف من هو!

فلقد نشأت يا سيدي بين أبوين متشاحنين باستمرار، وسمعت من أمي دائما - وطوال الوقت - أنها منذ زواجها بأبي، وهي تحمل له كل مشاعر الكراهية والاحتقار، وكيف أن زواجها به كان مؤامرة دبرها أهله؛ لكي يتخلصوا منه ومن طباعه التي لا يتحملها أحد، فتعمدوا ألا يتيحوا لها خلال فترة الخطبة الالتقاء به كثيرا، وباعدوا بينه وبينها، حتى أنها لم تره خلال الخطبة، سوى مرة واحدة بمبررات مختلفة وللحظات لم تسمح لها بالحكم عليه.

ثم حين اكتشفت بعد الزواج طباعه السيئة، كانت قد حملت في، فقررت أن تضحي بنفسها من أجلي، ومن أجل إخوتي الذين جاءوا بعدي، وواصلت الحياة معه كارهة له منذ اليوم الأول.

هكذا راحت تصف لي ولإخوتي والدنا منذ طفولتنا المبكرة بأبشع الصفات وتلقنها لنا.

ولأنني أحب أمي حبا شديدا، وارتبط بها ارتباطا لا حدود له فلقد اكتسبت معظم صفات أمي، وتشربت منها كرهها لأبي وأصبحت أصدق تماما ما تصفه به من البخل وضعف الشخصية، وصفات أخرى عديدة، أخجل من ذكرها، ولا أستطيع إلا أن أصدقها، فتحولت إلى ابنة كارهة وعاقة لأبيها، استمتع بمعارضته وتجاهله وبمعاملته ببرود أحيانا، وبعصبية شديدة في أحيان أخرى، وهو شعور إخوتي أنفسهم تجاهه، كما أصبحت لا أطيق أيضا أن أجلس في مكان واحد مع أبي، أو أن أسمع صوته أو اسمه في أي حديث، ولكني في الوقت نفسه لا أطيق أيضا أن أسمع أحدا يغتابه بسوء أمامي، كما اعتاد أقارب أمي أن يفعلوا.

إنني أعرف أنني بسلوكي هذا تجاهه، استحق لهيب جهنم لعقوقي لأبي، ولقد حاولت الإقلاع عن ذلك مرارا، وتحسين معاملتي لأبي ولو حتى بالصمت وتحاشي الحديث معه، ولكني فشلت في ذلك مرارا، فقد كنت كلما هممت بذلك، يقفز إلى ذاكرتي حديث أمي المرير عنه، وكيف كان السبب في مرضها بالسكر وضغط الدم، وكيف أنها لم تنعم بزواجها منه كباقي النساء، كما أنني لم أنس أبدا، كذلك ذكريات المشاجرات العديدة التي كانت تنشب بينهما خاصة في طفولتي والتي كانت تصل أحيانا إلى التطاول بالأيدي، أو إلى اللجوء إلى قسم الشرطة.

كما أنني لم أنس أبدا ولن أنسى تشتتنا، ونحن صغار في بيوت أقارب أمي، ومعاملتهم القاسية وإهمالهم، حين كانت أمي تلجأ إليهم خلال خلافاتها مع أبي.. لم أنس كل ذلك ولن أنساه.

وكانت النتيجة هي أن أصبح وجه أبي أو صوته كابوسًا يطاردني ويفزعني في صحوي وفي نومي، فحين استسلم للنوم، يهاجمني غالبا كابوس مخيف، أرى نفسي فيه، أزف إلى شاب، أقبل به في أول الأمر، وحين يتم الزفاف اكتشف أنه أبي أو شخص آخر شبيه به، ويتصرف تصرفاته نفسها التي كرهتها من أعماقي، وأرى نفسي أفشل في حياتي الزوجية، وأواجه مصير أمي نفسه، لكني لا أستطيع التراجع فأضرب «أبي» في الحلم ضربا عنيفا مبرحا، وأرميه بأبشع الألفاظ، وهو يتحملني صابرا، ثم يتحول في نهاية الحلم أو الكابوس إلى وحش مخيف يقتلني بنظراته.

إنني أشعر بشدة بتأنيب الضمير، ولكن صدقني أنني لا أظلم أبي، فإن سلوكه لا يتحمله كثيرون، حتى إخوته الذين ينفرون منه ولا يسألون عنه، ولست أنكر أنه طيب القلب وحنون، ويدللني أنا بصفة خاصة، ولكن ما أسمعه من أمي عنه وما رأيته منه، يجعلني أكرهه ولا أستطيع أن أشعر نحوه بمشاعر الابنة تجاه أبيها، ولا بمشاعر الاحترام، كما أنني لا أجد فيه صورة الأب كما أتمناها، ولا المثل الأعلى للأب والصديق، الذي تتمناه كل فتاة.

إنني أموت رعبا وخوفا من المستقبل، وفى حين أتحين الفرص لقبول أول شاب، يتقدم لخطبتي هربا من جحيم الأسرة؛ فإني أخاف بشدة من الارتباط بأي رجل، إذ من يدريني أنه لن يكون صورة أخرى من أبي، وأمي تقول لنا - منذ الصغر - إنها لم تكتشف حقيقته إلا بعد الزواج؟

إنني أخاف أن أواجه هذا المصير نفسه، وأشعر شعورا غامضا بأن الله سبحانه وتعالى سوف يعاقبني بشدة على عقوق لأبي في الدنيا والآخرة، وأن عقابه قد يكون في ابتلائي بزوج له صفات أبشع مما كرهته أمي في أبي، وقد يكون في حرماني من الزواج نهائيا أو من الأمومة إذا تزوجت، كما حرمت أنا أبي من بنوته لي.

فماذا أفعل يا سيدي، وكيف أستطيع تغيير معاملتي الجافة لأبي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا كان والدك كما تصوره لك أمك منذ طفولتك هو البشاعة التي لا يحتملها بشر، والفرد الذي لا شبيه له، ولا يمكن أن يأتي عملاً أو سلوكا غير معيب أو منتقد، حتى ولو من باب الخطأ..

إذا كان كذلك فعلا وهو ما أشك فيه - فماذا عن والدتك التي اغتالت براءة مشاعرك منذ الطفولة، وأفسدت عليك قيمك ومثلك العليا ورؤيتك للحياة والمستقبل، حين أورثتك هذا الميراث العظيم من الحقد على أبيك وكراهيته وكراهية كل الرجال معه؟ ألا تتحمل هي أيضا بعض اللوم عما فعلت بك وبإخوتك، أو لا يدعوك ذلك إلى إعادة التفكير في الأمر كله، وفي علاقة أبويك كل منهما

بالآخر، فربما قادك ذلك إلى تعديل بعض أفكارك الخاطئة عن أبيك وأمك والرجال والمستقبل!..

لقد فعلت بك أمك يا آنستي أسوأ مما فعل أبوك بها، حتى ولو صح كل ما ترويه لك عنه، فوالدك - لو صح ما تنسبونه إليه - إنما قد جنى على أمك وحرمها من السعادة الزوجية، أما والدتك «الشهيدة» التي ضحت بسعادتها من أجل أبنائها فلقد جنت على هؤلاء الأبناء أنفسهم، بأكثر مما جنى أبوهم على أمهم؛ حين صدرت إليهم مشكلتها مع زوجها الذي لم يرغمها الأبناء على الزواج منه ولا حيلة لهم في طباعه وسلوكه، وحين أورثتهم هذا الميراث المرير، وما كان أسهل أن تجنبهم إياه، وألا ترشحهم به للاضطراب النفسي، وتقدمهم للحياة خائفين من المستقبل متوجسين منه، كما هو حالك الآن يا آنستي.

فمن الظلم البين أن تورث أم أبناءها هذا الميراث المشئوم، مهما كانت تعاستها بأبيهم، ومن يضحي بسعادته الشخصية من أجل أبنائه لا يحق له أن يستأدي هؤلاء الأبناء ثمن هذه التضحية بإفساد رؤيتهم للحياة، وقيمهم، ومثلهم العليا؛ إذ إن ذلك يتعارض أساسا مع منطق التضحية من أجل هؤلاء الأبناء، ويتعارض أيضا مع الحب الحقيقي الرشيد لهم والحرص الأمين على مصلحتهم؛ «فالطفل الذي بلا أب كالبيت الذي بلا سقف» كما تقول لنا الحكمة البوذية القديمة، ولقد رفعت عنكم أمكم هذا السقف المعنوي، الذي يقيكم صواعق السماء منذ زمن طويل، حين هدمت رمز الأب في مخيلتكم، ولم تقصر في إشعاركم بكراهيتها الشديدة، بل واحتقارها له أيضا!

ولو لم تفعل ذلك بكم، لربما تخففت حياتكم من كثير من أسباب الشقاء، ولسمحت لمشاعركم الفطرية السليمة تجاه الأب بالنمو الطبيعي لها، والاغتراف مما يمثله الأب في حياة أبنائه من أمان وحنان ومثل عليا، بل ولربما أيضا كانت حياتها هي كذلك، قد تخففت من بعض أسباب الشقاء بها، حين تجد أبناءها يشبون في جو عائلي أقرب إلى الصحة والسلامة مما هو الآن، ويعوضون في حياتهم ما حرمت هي منه من سعادة، ولانحصرت أيضا مأساة التعاسة الزوجية بين طرفيها، ونجا الأبناء مع دفع هذه الضريبة الباهظة لها.

ولم يكن ذلك بالصعب ولا بالمستحيل، فما أكثر الأمهات اللاتي لم يسعدن بأزواجهن، وحرصن رغم ذلك على ألا يسيئن إلى رمز الأب لدى أبنائه، ليس احتراما لهذا الأب نفسه، وربما كان لا يستحق احترامها الشخصي، ولكن حرصا على نفوس الأبناء من الاضطراب والتمزق، وأداء للواجب الديني والأخلاقي تجاه هؤلاء الأبناء.

فالتضحية التي يطلب صاحبها ثمنا لها، تفقد قيمتها ومعناها وتتحول إلى ابتزاز كريه للمشاعر والأحاسيس.

والأم أو الأب الذي يشرك أبناءه - صغارا كانوا أو كبارا - في همه بشريك حياته، ولا يخفي عنهم كراهيته الشديدة، بل واحتقاره له كما فعلت والدتك.. لا يحسن إلى هؤلاء الأبناء ولا يضحي بسعادته من أجلهم كما يتصور، إذ أين تكون التضحية،

وقد استأدى الأبناء هذا الثمن الفادح لها بتسميم حياتهم وأفكارهم عن أقرب الناس إليهم، وعن الحياة بصفة عامة، ويكفي ما تعانين منه أنت الآن من تمزقٍ واضطراب وخوف من الرجال والزواج، وتناقض في المشاعر والأفكار، دليلاً على بشاعة مثل هذه التضحية التي لا تستحق اسمها.. فأنت مثلاً كما تقولين - سامحك الله - تكرهين أباك من الأعراق بتأثير فحيح الأم التعيسة المستمر ضده في أذنيك منذ الطفولة، ولكن من ناحية أخرى تضيقين بمن يذكره بسوء في غيابه، ولا تعرفين تفسيرا لهذا التناقض!

وأنت أيضا تتلهفين على الارتباط بأي إنسان يخرجك من هذا الجو العائلي المسموم، ولكن تخشين بشدة الارتباط بأي رجل؛ تحسبا لأن يكون مثل أبيك، وخوفا من أن تشقي به كما شقيت أمك بأبيك.

وأنت ترفضين أباك وتشعرين تجاهه بأبشع الأحاسيس، وتترددين بين معاملته بجفاء أحياناً ومعاملته بالعصبية الشديدة في أحيان أخرى وتشعرين أنه يستحق منك كل ذلك، ولكنك من ناحية أخرى تعترفين له بطيبة القلب والحنان وتدليله لك أنت على وجه الخصوص، وتجدين أثر ذلك فيما تشعرين به الآن من عذاب الضمير والإحساس بالذنب والإثم الديني لعقوق أبيك والاجتراء عليه، ومن خوف شديد مما ينتظرك من عقاب السماء لك على ذلك في الدنيا والآخرة.

أما الكابوس الذي يزورك من حين لآخر وترين نفسك فيه قد تزوجت شابا رضيت به في البداية، ثم لا يلبث أن يكشف لك بعد الزفاف عن شخص أبيك «الكريه» - غفر الله لك - فتنهالين عليه ضربا وسبا، فليس ذلك سوى قمة ما أهدتك أمك إياه من ميراثها العظيم لك؛ فلقد أورثتك الخوف الشديد من الزواج، ومن الرجال بصفة عامة، والتخوف الشديد من التعاسة قد يكون في بعض الأحيان من أهم أسباب الوقوع في براثنها؛ لأن الخائف يسلك في الغالب سلوكا مضطربًا مترددا، قد يسرع إليه بما يخشى منه من حيث لا يدري، ولا عجب في ذلك، فحين «يجفل الحيوان يخطئ النظر» كما يقول لنا شاعر الرومان فرجيل، وكذلك يفعل الإنسان، حين يخاف بشدة فيخطئ النظر، ويخطئ الحكم على الأشياء والأشخاص .

فإذا أردت يا آنستي النجاة بنفسك من كل ذلك، والتخلص من إثم العقوق الذي يثقل ضميرك، والتعامل مع أبيك بما أمرك به ربك، فلن تستطيعي ذلك إلا إذا راجعت أفكارا عديدة رسخت في عقلك منذ الطفولة، وقمت بتعديلها وتصحيحها، ومن ذلك أن تتخلصي مما أرسته أمك في عقلك من أن أباك وحده - وبلا شريك آخر - هو المسؤول الأوحد عن شقاء الحياة بينهما بطباعه التي لا يحتملها أحد وسلوكه المعيب في كل الأحوال، فالحق هو أنه يندر أن يكون هناك طرف واحد من طرفي العلاقة الزوجية مسؤول وحده، وبنسبة مائة في المائة عن شقاء هذه الحياة، ودون أية مسؤولية - ولو بقدر بسيط - على الطرف الآخر

فالمسؤولية دائما مشتركة بين الطرفين، وبنسب متفاوتة، تجعل أحدهما المسؤول الأكبر، والآخر المسؤول الأصغر عن ذاك.

ولو راجعت موقف أمك من أبيك الذي لا يطيقه أحد كما تقولين لاكتشفت أنها ليست مبرأة مائة في المائة من كل خطأ، أو تقصير؛ إذ يكفي فقط أن أشير هنا إلى أنها لم تخف عن أبنائها ولا عن الجميع بالطبع كراهيتها واحتقارها له منذ اليوم الأول لزواجها، وهي جريمة كبرى في حد ذاتها، كما أنها لم تتورع أيضا في بعض الأحيان عن اللجوء للشرطة، ضده، مع أنه لم يكسر لها ذراعا ولم يهددها بالقتل كما فهمت من سطور رسالتك، وهذا السلوك وحده، يكفي للتدليل على أنها لم تكن دائما الطرف المستسلم، الذي يتلقى الإساءة صابرا ومضحيا من أجل الأبناء، وليس هدفي من ذلك أن أسيء إلى صورة أمك في مخيلتك، ومعاذ الله أن أفعل، حتى ولو كنت غير راض عما أورثت أبناءها من ميراث كريه، وإنما هدفي فقط هو أن تسلمي بأنك لا تصلحين كابنة، لأن تصدري الأحكام على أحد أبويك، ولا على مدى مسؤوليته عن شقاء الآخر، ولا هو مطلوب منك أو من إخوتك أن يفعلوا ذلك من الأصل.

فليس من العدل أن يطلب أحد الأبوين شهادة الأبناء ضد أبيهم، أو أمهم أو تأييده له ضد الآخر، كما أن من الخطأ البين أن يشجع أحد الأبوين أبناءه على الانحياز إليه ضد الطرف الآخر، وتبني رأيه أو وجهة نظره فيه؛ لأن موقف الأبناء من الطرفين، يختلف عن موقف كل منها تجاه الآخر.. ذلك أن علاقتها في النهاية هي علاقة زوج بزوجته، أو زوجة بزوجها، وهي علاقة ليست أبدية؛ حتى ولو كانت مقدسة ويمكن فصمها دائما في أي مرحلة من العمر، أما علاقة الأبناء بالأبوين، فهي علاقة أبدية، ولا يمكن فصمها.

فإذا اقتنعت أنت بكل ذلك، أمكن لك أن تعدلي من أفكارك تجاه، أبيك الذي ترينه الآن إنسانًا بشعا لا يأتيه الحق من أمامه أو ورائه ولا يمكن أن يصدر عنه إلا كل ما هو مرفوض ومعيب، ولأدركت أيضا، أنه بشر كالبشر، له عيوبه وله أيضا فضائله ومميزاته، ولأتاح لك ذلك أن تعيدي اكتشافه من جديد، وأن تتعاملي مع الجوانب الطيبة والخيرة منه، وتتركي شأن علاقته الزوجية بأمك لها وحدهما، يتدبرانها با توجبه عليها مسئوليتها كزوجين وأبوين.

أما أنت وإخوتك، فلستم الجناة في قضية تعاسة أمكم الزوجية ولا أنتم القضاة فيها ولا الشهود، وإنما أنتم أبناء مطالبون - في كل الأحوال - بأن يعاملوا أبويهم معاملة كريمة وعادلة، بغض النظر عن ظلم أحدهما للآخر أو إساءته له، وأن يسمعوا إذا اضطروا للسماع شكوى أحدهما ضد الآخر، على مضض، وبغير أن يشاركوا في إدانة الطرف المشكو في حقه أو الشهادة عليه.. وبأن يسعوا دائما للفصل بين مشاعرهم تجاه أبويهم كأبناء، وبين رأيهم في طبيعة العلاقة الزوجية، بينهما، وكلاهما - في النهاية - إنسان رشيد ومسؤول عن أفعاله واختياراته في الحياة، ولا بأس بعد ذلك بأن يسعى الأبناء بالخير بين الطرفين، ولو اضطروا أحيانًا للكذب الأبيض بهدف الإصلاح بينهما، وإزالة المرارة من النفوس، وليس الكذاب الذي يصلح بين الناس؛ فينمي خيرا أو يقول خيرا، كما يقول لنا مضمون الحديث والشريف، وإنما هو من يسعى بالوقيعة والشر بينهم، حتى ولو نطق صدقاً!

أما التمركز في خندق الأم ضد الأب.. أو خندق الأب ضد الأم والتأثر بسمومه ومرارته، التي يختزنها ضد الطرف الآخر طوال العمر، فليس ذلك من واجب الأبناء، ولا هو من حق الآباء والأمهات عليهم، ولا من التربية السليمة أو الدينية لهم.

فعسى أن يعفى كل أم وكل أب الأبناء من مثل هذه الكوابيس المزعجة، التي تعانينها أنت الآن، وتضربين فيها بتأثير عقلك الباطن رمز الرجل كله في صورة أبيك باعتباره مسؤولاً عن قهر الأنثى ومصدرا لشقائها، وهذا للأسف بعض ميراثك الكريه من أمك، غفر الله لها وللجميع، وبئس هذا الميراث، وهذا الانتقام الظالم من أبيك في شخص أبنائه وسعادتهم، وسلامهم النفسي، ورؤيتهم الصحيحة للحياة حتى ولو لم تدرك ذلك أو تقصده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الآثار الجانبية

خلافاً لعادة بعض قرائك الذين يقولون لك دائما في بداية رسالتهم أنهم لم يتخيلوا أن يجئ يوم يصبحون فيه أبطالاً لبعض مشاكل بابك العزيز، فإني كنت أشعر - منذ بدأت أقرأ لك قبل عشر سنوات - أنه سوف يجئ حتها اليوم الذي سأكتب لك فيه لأروي قصتي، ولكن مشاغل الحياة شغلتني إلى أن حدث منذ شهرين ما جعلني في أشد الاحتياج إلى ذلك.

فأنا سيدة في الخامسة والثلاثين من عمري، نشأت في أسرة مكونة من أبي وأمي، وعدد من الإخوة، كان ترتيبي بينهم الابنة قبل الأخيرة، وكان أبي يشغل مركزا محترما، وأمي سيدة طيبة، لا تعرف من الدنيا سوى بيتها وأبنائها.

ومنذ وعيت للحياة، وأنا لا أرى ولا أسمع في بيتنا سوى الشجار والضرب من جانب أبي لأمي المسكينة بسبب ولغير سبب، وحين اسأل أمي عن سر هذه الأحوال المؤلمة، تجيبني بأن أبي لم يكن بين الرجال من هو مثله في طيبته وحنانه إلى أن تعرف بشلة من أصدقاء السوء، كانوا السبب في تغيره، بالإضافة إلى عصبيته وحدة مزاجه، فعشت أيام طفولتي، وأنا أخاف من اقتراب الليل، ومن الاستغراق في النوم ليقيني أنني سأصحو منه بعد قليل مفزوعة على صوت الدق العنيف على باب الشقة، ثم يدخل أبي ويوقظنا جميعا، ويمارس هوايته في الشجار والضرب، ثم ننزوي في النهاية أنا وأخي الأصغر في حضن أمنا خائفين مرتعبين حتى الصباح.

وهكذا مضت أيام الطفولة غير السعيدة، لم أشعر خلالها بعطف الأب ولا حنانه، ولم أحس بما يحس به الأطفال من أمان وسعادة ورغم ذلك فلقد واصلت تعليمي بهمة، وواصله كذلك كل إخوتي، وقد ترسخ في ذهن كل منا وبطريقة تلقائية، أنه لن ينفعه أحد أو شيء في الحياة سوى تعليمه، فحرصنا على التعليم، كأنما هو طوق النجاة، الذي سينقذنا من هذا الجحيم، وأصبح هم كل واحد منا هو أن ينهي تعليمه، ليهرب من بيت الأسرة في أقرب فرصة، فشق طريقه في التعليم، متباعدا عن باقي إخوته في انتظار يوم الخلاص، ولم ينشأ أي ترابط بيننا للأسف، فيما عداي أنا وأخي الأصغر اللذين جمع بيننا صغر السن والخوف.

ومضت السنوات، وتخرج الإخوة - واحدا بعد الآخر وواحدة بعد الأخرى - واستقل كل منهم بحياته، فتزوج منهم من تزوج، وسافرت مع زوجها من سافرت، وبقيت أنا وأخي الأصغر، وحدنا مع أمي، في بيت الأسرة.

وحين بلغت الثانوية العامة، توفى أبى فجأة وهو في عنفوان قوته وصحته على إثر حادث أليم، وعلى الرغم من كل ما شكونا منه وعانيناه.. فلقد حزنت كثيرا على رحيل أبي، الذي تمنيت أن أشعر تجاهه بما تشعر به كل فتاة نحو أبيها. وبدأت مرحلة جديدة من حياتنا؛ فتفرغت أمي لرعايتي أنا وأخي الأصغر، ووفر لنا معاش أبي الكبير حياة كريمة؛ فتمتعت بحنان أمي الكبير، رغم كل ما عانته من أجلنا، والتحقت بالجامعة وتعرفت بمن ارتبطت به بعد ذلك.

واتفقنا على الزواج فور تخرجنا من الجامعة، وظننت أن الحياة قد ابتسمت لي بعد طول انتظار، فإذا بي أمرض، وأنا طالبة بالسنة الثانية في كليتي بمرض نادر وخطير لم يكن الأطباء حتى سنوات قريبة قد اكتشفوا له علاجا، وكان الموت هو نتيجته الحتمية، وبعد رحلة الحيرة بين الأطباء، توصلنا لمن استطاع تشخيص هذا المرض، وقال لنا إن الأمل الوحيد هو جراحة عاجلة ومأمونة، ولكنها سوف تخلف وراءها بعض الآثار الجانبية، فبدأت دوامة العلاج والجراحة، وتعطلت عن مواصلة الدراسة الجامعية عامين طويلين استغرقها علاجي، ووقف فتاي معي في هذه المحنة، وأصر على استكمال مشوار الزواج، رغم محاولتي معه لكي أعفيه من ارتباطه بي، ليدعني لأقداري.

وتزوجنا بعد أن سمح لي الطبيب بذلك، وواجهنا معا صعوبات البداية المألوفة، ووجدت في زوجي رجلاً فاضلاً بكل معنى الكلمة، وحنونا بكل ما يعنيه الحنان، وعاشقا لي ولبيته ولابنتيه، اللتين رزقنا الله بهما وجعلها قرة أعين لنا، وتحسنت أحوالنا المادية تدريجيا، والحمد لله، والتحقت ابنتي بإحدى مدارس اللغات، واشتركنا في ناد كبير، وكل ذلك وأمي معي طوال الوقت؛ لأن أخي الأصغر كان قد سافر للخارج، وترك لي رعايتها.

والمشكلة التي دفعتني لأن أكتب إليك بشأنها، هو أنني كنت دائماً أحب أمي حبا كبيرا، وأحب زوجي وابنتي حبا لا يوصف، ولكني - ولسبب في أعماقي لا أدريه - كنت لا أريد أن أعبر لهم عن حبي العظيم هذا، وعلى حين كان من المفروض بعد أن خبرت الضرب والعنف والقسوة أن أنفر من كل ذلك فإني على العكس من ذلك أضرب البنتين اللتين لا أحتمل أن تخدشها نسمة الهواء بقسوة شديدة، كما أعامل زوجي الذي أحبه أيضا بجفاء غير مفهوم، أما أمي التي لا أظن أن في الدنيا أما قدمت لابنتها ما قدمته لي ولإخوتي، وهي المضحية دائما بنفسها وراحتها من أجلى والمتفانية في خدمتي وخدمة ابنتيّ، حتى لقد ربت البنتين، وكانت تصحو من نومها في نصف الليل لترعاهما؛ حتى لا توقظني، ولم تبخل عليهما بشيء مهما غلا ثمنه.

أمي هذه يا سيدي، كنت لا أعبر عن حبي لها أبدا، وكنت للأسف أتعامل معها بعصبية وضيق صدر؛ فلا تغضب مني أبدا، ولست أعرف: هل ما لقيته في طفولتي من عناء وخوف وقلق، هو السبب في ذلك، أم أنني قد أصبحت عصبية؛ بسبب الجراحة التي أجريت لي في صدري، ومضت حياتنا على هذا النحو حتى حدث ما زلزل كياني، فمنذ شهرين رحلت أمي عن الحياة فجأة بعد مرض، لم يمهلها سوى ثلاثة أيام.

ومنذ ذلك الحين يا سيدى، انقلبت حياتي رأسًا على عقب، وأصبت بالاكتئاب ونوبات البكاء الطويل اللانهائي، وكرهت الحياة، وأهملت زوجي وبيتي وابنتي، ولم تفلح معي محاولات زوجي لإعادتي إلى طبيعتي السابقة، لقد قرأت لك أكثر من مرة عبارة، تقول فيها: املأ عينيك من وجوه الأحباء والأهل والأصدقاء، فقد يغيبون عنك بعد حين، ولا تؤجل إفصاحك لهم عن مشاعرك الطيبة تجاههم إلى الغد، فقد لا يكونون على مسرح الحياة، حين يجيء هذا الغد.. إلخ.

وتفكرت في هذه الكلمات، حين قرأتها طويلا وأحببتها ورددتها لنفسي كثيرا، وقررت أن أعمل بها، ولكن الحياة جرفتني في زحامها. فلم أعمل بها للأسف، ولم أعبر عن حبي العظيم لأمي، ولم أعفها حتى من بعض عصبيتي، وإني حزينة لذلك أشد الحزن، حتى ولو كان إخوتي يقولون لي الآن إنني كنت أحن الأبناء عليها.

لم أفعل يا سيدي، وأشعر بلسع الندم القاسي على ذلك، ولا أفعل الآن ذلك مع زوجي وابنتيّ، ولا أعرف السبب ولا أجد تفسيرا له، مع إني أعرف ديني وأؤدي فرائضه، وأعلم ابنتيّ الصلاة وتعاليم الدين، وأنا الآن أرتدي السواد، ليس حداداً فقط على أمي؛ لأني أعرف تعاليم ديني بهذا الشأن، وإنما لأن السواد يعكس ندمي على تحفظي في إبداء مشاعري تجاه أمي، وندمي على فلتات عصبيتى معها، كما يعكس حالتي النفسية، وزهدي في الحياة، وفى كل شيء.. فكيف أستعيد بهجة الحياة، كما يطالبني من حولي، وأنا التي لم أشعر بها مطلقا من قبل، وكنت منذ طفولتي فتاة حزينة؟ إنني لا أعرف ماذا ينقصني لكي أكون إنسانة سعيدة.. فهل عندك ما تقوله لي يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نعم يا سيدتي، عندي الكثير الذي أقوله لك عن الآثار الجانبية، التي مازلت تعانين منها، وانعكست عليك في بعض سلوكك تجاه الحياة والأعزاء من حولك، ولست أقصد بذلك الآثار الجانبية لتلك الجراحة، التي أجريت لك منذ بضعة أعوام، وإنما اقصد به آثار تلك النشأة الخائفة الحزينة في بيت مضطرب بالقسوة والعنف والشجار الدائم، وينطوي فيه كل ابن من الأبناء على نفسه، عازفا عن الارتباط بالآخرين، ومركزا كل أمله في يوم الخلاص القريب من هذا الجحيم!

فهذه النشأة الخائفة هي الجراحة القاسية الحقيقية التي تعرضت لها، فاستأصلت من أعماق نفسك للأسف أحاسيس الأمان والثقة في الغد، والابتهاج بالحياة، والتفاؤل بالمستقبل، والحق أن الإنسان قد يدفع أحيانا ثمنا غاليا لعجز الأبوين، أو أحدهما عن أن يوفر له ما يحتاج إليه كل طفل؛ لكي ينشأ سويا وقادرا على التفاعل السليم مع مؤثرات الحياة، وهو الطفولة السعيدة الآمنة.

وبعض ما تعانين منه الآن، هو من بقايا هذا الثمن الباهظ لحرمانك من هذه الطفولة الهانئة المستقرة، فلقد تأملت طويلا ما تقولين من أن إخوتك في شدة معاناتهم للخوف والشقاء في بيت الأسرة، قد جعل كل منهم هدف حياته، هو أن ينهي تعليمه ليفر ناجيا بنفسه من هذا الجحيم، وأنهم خلال انشغالهم بهذا الهدف، الذي كان يمثل لهم طوق النجاة، لم ينشأ بينهم أي ترابط، مع أن وحدة الشقاء قد تقرب بين من يشتركون فيه، وقد تزيد من ترابطهم في وجه مصدر هذا الشقاء، وقد تزيد أيضا من تعاطفهم فيما بينهم كمحاولة لتعويض بعض ما حرموا منه من عطف الأب وحنانه، ولكن حيرتي لم تطل كثيرا أمام ذلك؛ لأن التعاسة كما تجمع

بين التعساء - في معظم الأحيان - فإنها قد تفرق بينهم أحيانا، وتذكرت على الفور ما قاله الأديب الروسي العظيم، أنطوان تشيكوف، من أنه في بعض الأحوال، التي قد يخيل إلينا فيها أن تشابه البلوى ينبغي له أن يربط بين المبتلين.. فإنه قد تقع من الشرور، أكثر مما يقع في أوساط الهانئين نسبيا، ولا شك أنه كان من ميراث التعاسة بالنسبة لبعض إخوتك الذين عانوا جحيم الخوف والقلق الدائم لأسباب الكدر وتنغيص الحياة، أن تتنبه فيهم للأسف أحاسيس الأنانية، التي تحصر اهتمام المرء في ذاته، وكيفية الدفاع عنها ضد الخطر الذي يهدد أمانها كل لحظة، وكيفية النجاة بها من السفينة الغارقة.

وفي مثل هذه الظروف غير المريحة.. فقد يتركز التفكير في «الأنا»، ويتراجع التفكير في «الآخر»، وينطوي كل فرد على نفسه متخذا موقفا حياديا جامدا من الآخرين، ولست أستطيع رغم إنكاري ذلك على من يضطرون إليه كحيلة دفاعية نفسية، أن ألومهم كثيرا على ما دفعهم إليه الشقاء من أنانية بعض التعساء، ولكن اللوم - كل اللوم - على من - اضطرهم إلى ذلك، وقتل فيهم مشاعر العطف الأخوي والترابط العائلي، وقد كان في مقدوره أن يعفيهم من كل ذلك، وأن ينشئهم تحت ظلال الحب الأسري، والعطف الصادق، والقيم الصحيحة، أما أنت يا سيدتي.. فلقد كان ميراثك من هذه النشأة التعيسة أن رافقتك بعض بصماتها، التي لا مفر منها في بعض الأحيان، خلال رحلة الحياة، فاكتسبت شخصيتك بعض الظلال والسمات الاكتئابية، التي تدفع المرء لأن يستجيب لدواعي الحزن والتشاؤم، بأسرع مما يستجيب لدواعي الابتهاج والسعادة، وإلى التوجس من الغد وتوقع الكدر، أكثر من الثقة في المستقبل والتفاؤل به، وقد يكون من هذا الميراث أيضا ما تحكين عنه من عجزك النفسي عن التعبير عن الحب الذي تحملينه لأمك وزوجك وابنتيك.

ولا عجب في ذلك، لأنه استمرار للخوف القديم في أعماقك من الإفصاح عن المشاعر الحقيقية؛ تجنبا للمهالك والمتاعب من جانب أبيك، فلا شك أنك حين كنت ترين أباك يضرب أمك بقسوة وينغص عليها حياتها، كنت تشعرين غريزيا بالرغبة في الدفاع عنها ضده، وحمايتها منه، وفي التعبير عن رفضك الصاخب لما يفعله بها أبوك، وعن تعاطفك معها، وكنت تدركين أيضا أنك لو فعلت ذلك.. فلسوف ينالك من بطش أبيك وقسوته جانب آخر، فلا تجدين إزاء ذلك مفرا من كبت مشاعر الغضب والحنق، تجاه أبيك في نفسك، وكبت مشاعر التعاطف تجاه أمك أيضا إيثارا للسلامة وتسليما بالعجز عن تغيير الأوضاع الخاطئة، فاكتسبت - من حيث لا تدرين - «خبرة» اضطرارية في كبت المشاعر، وعدم الإفصاح عنها، وتحولت هذه الخبرة - بمضي الزمن - إلى ما يشبه العجز النفسي عن التصريح بالمشاعر، والإفاضة في التعبير عنها؛ حتى أصبح ذلك سمة مستقرة من سمات شخصيتك لا تعرفين أسبابها المباشرة، ثم تواصل هذا السلوك من جانبك تجاه أمك، حتى بعد زوال الخطر الذي كان يمنعك من الإفصاح عن مشاعرك تجاهها، وانسحب هذا السلوك، وهذا العجز النفسي أيضا في بعض مظاهره على تعاملك مع زوجك وطفلتيك، الذين تحبينهم جميعا أعظم الحب، وتعجزين في الوقت نفسه

عن التعبير لهم عن ذلك بالكلمات، حتى وإن استطعت التعبير عنه بالسلوك والأفعال!

والتعبير عن مشاعر الحب العائلي والحنان أيضا خبرة، يكتسبها الإنسان بالتجربة الشخصية أولاً حين يتلقاها ممن حوله، وحين يشاهدها فيهم فيحاول تقليدها، حتى تصبح سلوكا مستقرا لديه، ومن لم يخبر العطف الإنساني، قد يصعب عليه أن يمنحه لمن حوله لأن إناءه لم يتلق منه القدر الكافي الذي يسمح له بالعطاء للآخرين، حتى ولو كانت بعض النفوس الرضية الطيبة، التي حرمت منه في حياتها تلهمها طبيعتها الخيرة إدراك أهمية ما حرمت منه هي بالنسبة للآخرين؛ فتعطي ما لم تأخذ من قبل.

ولهذا... فقد قال أديب عظيم، عاش طفولة قاسية، تعرض خلالها للعقاب البدني المؤلم مرارا من أبيه: كانت طفولتي خالية من العطف، ومازلت حتى الآن انظر إلى العطف، وكأنه شيء غير مألوف بالنسبة لي، أو شيء لم تكن لي به خبرة كبيرة من قبل.

ومع أنني من أنصار مبدأ أن من عانى أشد الألم، ينبغي له أن يكون أرق قلبا وعاطفة تجاه الآخرين، ممن لم يعرفوه.. فإني لا أستطيع على الناحية الأخرى أن أغفل أثر هذا الألم نفسه على بعض النفوس، فيما تكتسبه لا إراديا من بعض الجمود في المشاعر، وبعض التحفظ في إبداء العطف الإنساني تجاه الآخرين.

وعلى ضوء ذلك.. فقد تكون قسوتك على طفلتيك رغم حبك لهما ورغبتك الحقيقية في إسعادهما، وتجنيبهما كل ما عانيت أنت منه من خوف وحرمان من الحنان، قد يكون ذلك تنفيسًا خاطئا، عما تعرضت له في طفولتك من قهر وإيذاء نفسي من جانب الأب، كما لو كنت تقولين لنفسك أحيانا إنك تستطيعين الآن رد عدوان أبيك على أمك، دون أن تخشي قهر الأب لك، أو كأنك تقولين في أعماقك حين تضربين ابنتيك بقسوة، في أحيان أخرى، وماذا يكون هذا التأديب، إلى جانب ما عانيت منه أنا، وأنا في مثل عمريهما من قسوة وعنف وخوف وتعاسة.

ولا شك أن كل ذلك تحويل نفسي خاطئ لمشاعر القهر العنيف، التي كنت تشعرين بها تجاه أبيك إلى الجهة غير الصحيحة، كما قد يكون لبعض ما ورثتيه عنه من بعض العصبية وحدة المزاج أثر في ذلك، فضلاً عما قد يكون لتلك الجراحة التي أجريت لك أيضا من بعض الأثر عليك.

ولا شك أنك تحتاجين إلى مراجعة نفسك في كل ذلك، وتحتاجين أيضا إلى مراجعة نفسك فيما يتعلق بمعاملتك لزوجك المحب المخلص بجفاء، وفيما يتعلق بتحفظك في إبداء مشاعرك الحقيقية تجاه الآخرين، والتعبير عنها بحرية، إذ يبدو أنك مازلت في حاجة لأن تقتنعي نفسيا بأن الخطر الذي كان يحول بينك وبين التعبير الصحيح عن مشاعرك، قد زال وانقضى إلى الأبد، فإذا كانت قد فاتتك فرصة ثمينة؛ لأن تملئي عينيك من وجه أمك الراحلة، وتغرقيها في طوفان من مشاعر الحب والعرفان والامتنان لها وهي على قيد الحياة، فلقد يخفف عنك بعض ندمك على ذلك أنها كانت - بغير شك - تدرك بقلب الأم كل ما تحملين لها من مشاعر

طيبة، وتشفق عليك من ظروف طفولتك التعيسة، ومما تعرضت له أيضا - فيما بعد - من متاعب صحية شديدة، فللقلوب أيضا حديثها الصامت وتفاهمها العميق يا سيدتي، وإن كان المرء يحتاج كذلك إلى ترجمة حديث القلوب هذا إلى لغة ناطقة .

والحق أننا في حاجة دائمة؛ لأن نعبر لمن نحبهم عن حبنا لهم، وأن نسمع منهم أيضا ما يؤكد لنا كل يوم حبهم لنا، بالكلمات وليس بالتصرفات وحدها؛ فالنفس راغبة دائما في أن يذكرها الأعزاء كل يوم بحبهم لها، واعتزازهم بها، وليس الحب والتعبير العاطفي عنه حاجة نفسية ضرورية عند الصغار فقط، وإنه كلما تقدم العمر بالمرء زهد في ذلك كما يتوهم البعض، بل إننا على العكس تماما، تزداد حاجتنا النفسية إلى ذلك كلما تقدم بنا العمر، ومن واجب الجميع أن ينتهزوا فرصة الأيام، التي لا تطول؛ لكي يعبروا عن عواطفهم الحارة تجاه أعزاءهم بأحر الكلمات، وأصدق التعابير تماما، كما يتسارع حديث المودعين إلى المسافرين من نافذة القطار؛ لكي ينهوا إليهم كل ما يريدون قوله لهم، قبل أن تدق أجراس الرحيل ويتحرك القطار!

ولن ينالنا سوى الأسى ولسع الندم، لو أضعنا الفرصة، ورحل عنا الراحلون، وفي نفوسنا غصة من لم يمهله الوقت؛ ليؤدي ديون الحب والامتنان لمن أخلصوا له الحب والعطف طوال رحلة السنين؛ فأكثري يا سيدتي من الترحم على والدتك الراحلة، والدعاء لها كل يوم في صلاتك وتصدقي بما يطمئن روحها في العالم الأفضل إلى أنها قد خلفت وراءها من مازالت على الود والامتنان مقيمة، وتدعو لها بالخير وحسن المآب وعوضي ما فاتك من التعبير لها عن حبك في ابنتيك وزوجك، وإخوتك الذين تصلين رحمهم، وتعيدين ما تباعد بينهم من روابط مع الأيام.

ولن تستطيعي أن تفعلي ذلك، إلا إذا خرجت من دائرة الأحزان، وتفاعلت مع الحياة، واستجبت لمؤثراتها، واستردت إحساسك بمباهجها، فمن لم يشعر ببهجة الحياة، لا يستطيع أن يهب السعادة للآخرين، وأنت الآن مطالبة بإسعاد نفسك وزوجك المحب، الذي تمسك باختياره لك في وجه الآلام والمتاعب، وطفلتيك اللتين ينبغي لهما أن تجنبيهما كل ما عانيت منه أنت في طفولتك من تعاسة وشقاء، وقديما قال أحد الفلاسفة: هيا ننهض أيها الإخوان إلى الحياة.. فلقد طال جلوسنا فوق الأحزان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القصة الشائعة

أنا سيدة عمري 38 عاماً، زوجة وأم لثلاثة أطفال، أكبرهم في الثامنة عشر من عمره، وأصغرهم عمره أكثر من عام قليلاً، ورغم الحمل والإنجاب فما زلت في ريعان شبابي؛ حتى لا يكاد يصدق أحد أنني أم لثلاثة أطفال.

وقد التقيت بزوجي في المستشفى الذي كنا نعمل به معا في إحدى مدن الجنوب، فأنا طبيبة ولكني اعتزلت العمل منذ اليوم الأول لزواجي منذ 11 عاماً، وتفرغت لزوجي وبيتي، وأنجبت طفلي الأول ورضيت عن نفسي وزوجي وبيتي، ومضت السنوات بنا عادية إلى أن أتممنا عامنا التاسع، وحملت مرة أخرى لأنجب لطفلي شقيقاً أو شقيقة، واقترب موعد ولادتي، التي تقرر أن تتم بعملية قيصرية، بعد أن تبين حملي بتوءم، فإذا بزوجي يكلف بالسفر في مهمة علمية بأحد المؤتمرات بالخارج، فرتب لي دخول المستشفى؛ لإجراء الجراحة القيصرية، وطلب مني ألا أغادر المستشفى إلى بيتي بعد الجراحة وإنما إلى بيت إحدى قريباتي؛ لكي ترعاني عقب الولادة.

وتمت الولادة بسلام، وخرجت إلى بيت قريبتي، فأمضيت به بضعة أيام، ثم عرفت فجأة أن زوجي قد رجع من السفر، ولم يتصل بي، واتصلت أنا به فاعتذر بأنه لم يرجع إلا منذ ساعات، وبأنه كان على وشك الحضور إليّ، ثم طلب مني البقاء في بيت قريبتي بعض الوقت حتى أسترد صحتي، ولكني لم أسترح لهذه الرغبة من جانبه، وحزمت أمري على الفور، وجمعت ملابسي وحملت أطفالي، ورجعت إلى البيت، فإذا بزوجي يستقبلني بضيق شديد، ويسألني عما جاء بي. وابتلعت المقابلة الفاترة بجهد جهيد، وحاولت تفسيرها بإجهاد السفر، أو بتغير نفسه تجاهي بعد إنجابي لطفلين توءم، سوف يشغلاني عنه بعض الوقت.

وحاولت رغم ذلك إرضاءه بشتى الطرق لأنني أحبه، وقد سامحته من قبل كثيراً على أشياء مماثلة، ولكن تصرفاته ازدادت سوءاً في الأيام التالية، فازداد إهمالاً لي ولأطفاله؛ حتى لم تعد بيني وبينه من صلة، سوى ما يتركه لي من النقود، ولاحظت أيضاً أنه لا يهتم بنا جميعاً.. ولم، يعد يشغله شيء سوى شراء ملابس جديدة له كل حين، وقدرت أنها ربما تكون حالة طارئة، وسرعان ما تختفي فحاولت التقرب منه أكثر، فوجدته يتهرب مني باستمرار وابتذلت نفسي وكرامتي كامرأة في التودد إليه أكثر وأكثر، ففوجئت به يقول لي إنني جميلة جدا، ولكنه للأسف لا يستطيع أن يقترب مني؛ لأنه قد مل الحياة معي، ويريد الانفصال عني ليبدأ حياة جديدة، وعاتبته في ألم على ما قال، وسألته كيف طاوعه قلبه على أن يفكر في هدم البيت بعد 11 عاما من الزواج، وبعد إنجابنا لثلاثة أطفال، يحتاجون إلى أبيهم وأمهم، ورجوته أن يعيد التفكير في الأمر، وألا يتخذ قرارا يندم عليه فيما بعد.

وتركته لنفسه بعد ذلك، مع قيامي بكل واجباتي كزوجة وربة بيت تجاهه، فتمادى هو في البعد عنا إلى ما لا نهاية، وتركنا للقيام برحلة لمدة أكثر 10 أيام خارج

المدينة التي نعيش بها، ثم رجع من سفره، وهو أكثر فتورا وجفاء، ولا يريد أن يراني أو يرى أطفاله، وبحثت وراءه لأعرف سر هذا التغير الكبير، فعرفت أنه قد تعرف بزميلة جديدة في المستشفى نفسه منذ فترة، وأنه قد ارتبط بها، وحاولت إنقاذ بيتي وأطفالي من الخطر الذي يتهددهم، فاتصلت بمدير المستشفى، الذي يعمل به زوجي، وكنت أعرفه منذ فترة عملي السابقة معه، وشكوت إليه مما عرفته؛ فأجابني مندهشاً بأن كل من في المستشفى يعرفون هذه القصة الشائعة؛ فكيف لم أعرف بها إلا الآن؟

واستجاب الرجل لرجائي له لمحاولة إنقاذ بيتي وإبعاد زوجي عن هذه الزميلة، فقرر ندبه للعمل لبضعة شهور في مستشفى بمدينة أخرى قريبة ومع أن هذا الندب كان يوفر لزوجي استراحة مستقلة، تسمح بإقامة ومع أسرة، فلقد رفض بإصرار الاستجابة لإلحاحي عليه بأن يصطحبنا معه إلى هذه المدينة الأخرى، خاصة وقد كنا في إجازة المدارس الصيفية بالنسبة لطفلي الأكبر، وتمسك بالسفر إليها وحيدا، تاركا إياي وأطفاله في مدينة لا أهل لنا فيها ولا أصدقاء، سوى قريبتي التي أشرت إليها من قبل.

وسافر زوجي إلى مقر عمله ورجع منه وهو أكثر جفاء وقسوة معي فلقد أحس بأنني كنت وراء هذا الانتداب الذي أبعده عن حبيبة القلب بضعة أسابيع، واستدعى قريبتي وزوجها وحاكمني أمامهما بتهمة إفشاء الأسرار العائلية إلى رئيسه في العمل، واستعدائه عليه، مع أن الرجل لم يفعل ما فعل إلا بإحساسه كأب تجاه الخطر، الذي يهدد أطفالي، وانتهت جلسة المحاكمة إلى إدانتي بالخطأ المشهود، وهو نقل الأسرار العائلية إلى محيط العمل والزملاء، مع أن القصة كانت على كل لسان في مكان العمل منذ البداية.

ورغم ذلك.. فلقد تحملت وواصلت الحياة معه على أمل الإصلاح وزوال هذه الغمة، فإذا بي أسمع زوجي الحبيب يتحدث همسًا ذات ليلة في التليفون إلى شقيقه عن «خطته» لطردي من البيت، وإجباري على تركه باختباري، ولمست بعد ذلك بالفعل هذه الخطة، ولم تكن تزيد عن ضربي كل يوم ضرباً مبرحاً، بلا مبالاة لصراخ الأطفال وبكائهم وفزعهم، ثم الخروج بعد ذلك مباشرة للقاء حبيبة القلب، أو الاتصال بشقيقه ليروي له ما فعل!

وكانت النتيجة هي أن عجزت عن تحمل عناء هذه «الخطة» بعد فترة قصيرة؛ فهجرت البيت، ليس من أجلي، وإنما من أجل الأطفال الصغار وبكائهم المستمر وفزعهم مما يرون ويسمعون، فما أن غادرت البيت ورجعت إلى أهلي.. حتى قام زوجي بتغيير كالون الباب ورفض أن يسمح لنا بأخذ أي شيء من البيت، وتوقف عن إرسال أية نقود لي.

وبعد عودتي لأهلي ومدينتي القديمة.. عشت في انتظار حل من السماء لمشكلتي مع زوجي لعدة شهور، ثم مرض أحد أطفالي ذات يوم فأصطحبته إلى المستشفى المجاور، وجاء الطبيب الأخصائي ليفحصه؛ فإذا به يتهلل عند رؤيتي،

ويرحب بي بحرارة شديدة، وإذا أكتشف فيه زميلا سابقا لي في أول مستشفى، عملت به قبل زواجي..

وتذكرت كيف كان هذا الزميل يحاول دائما أن يتقرب مني، وكيف تقدم لخطبتي من أهلي، فرفضه أبي وقتها للأسف؛ لأنه كان على وشك السفر للخارج للحصول على رسالته العلمية، ولم يكن أبي راغباً في سفري، فجاءني هذا الزميل مودعاً ومؤكداً لي أنه كان يتمنى صادقاً أن يرتبط بي لولا رفض أبي، ثم سافر إلى بعثته، وتعرفت أنا بعد ذلك بزوجي وأحببته وتزوجته.

وفي موعد الاستشارة التالي، وجدت هذا الزميل يحاول أن يحدثني عن الماضي.. ويقول لي إنه قد عرف بكل ما حدث لي مع زوجي، ويطلب منى الحصول على الطلاق منه؛ لكي يتزوجني لأنني - كما قال - مازلت فتاة أحلامه التي تمناها لنفسه منذ 12 عاما، ومازلت محتفظة بجمالي ودماثة خلقي، ولسوف يكون أباً رحيماً لأطفالي، وزوجاً سعيداً بي.

وراح هذا الزميل يلاحقني بعد ذلك في كل مكان، ويسمعني من الكلام، ما كنت أتمنى أن أسمعه من زوجي ووالد أطفالي، على الرغم من تهربي منه وامتناعي عن الرد على التليفون في البداية، ولكن ماذا أفعل يا سيدي، والنفس تميل لما يرضيها ويمسح جراحها.. ويعيد إليها الثقة المفقودة في بعض الأحيان؟

لقد بدأت رغما عني «أشعر» بهذا الزميل القديم، وأخشى الآن أن أفقد مقاومتي معه، وأحاول الحصول على الطلاق؛ لأتزوج ممن يتمنى مجرد النظر إليّ، ولكن «الشقاء» كله في أطفالي، الذين لا أستطيع البعد عنهم، ولا أعرف كيف سيكون مصيرهم مع أبيهم، ولست أريد لهم إلا السعادة والاستقرار، وكلما فكرت في أمرهم شعرت بالرغبة في أن أرجع إلى بيت الزوجية، وأن أرتمي في أحضان زوجي، وأعيش معه في سلام لنربي أطفالنا، وأطلب منه أن يحميني من خطرات النفس وشرور الدنيا.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وزوجي غارق في «العسل» مع حبيبة القلب، وقد خلا له ولها الجو بعد رحيلي!

إنني أرجوك أن تشير عليّ بما أفعل، وأن تكتب كلمة لهذا الزوج الشارد؛ ليفيق من غفوته، وينقذ أطفالنا من التمزق والضياع، وهم الآن الأهم من كل شيء وشكراً لك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أخطأت يا سيدتي، حين اتصلت بمدير المستشفى، وطلبت منه مساعدتك في إبعاد زوجك عن شريكته في القصة الشائعة بندبه أو نقله مؤقتاً إلى مكان آخر، فمثل هذا التصرف لا يثمر عادة عودة الزوج الشارد إلى رشده، كما هو الظن عند من

يفعل ذلك، وإنما يؤدي غالبا إلى إمعان هذا الزوج في الشرود، والمضي في طريق اللاعودة، ليس فقط لأنه يشعر بالحنق الشديد على زوجته، التي يعتبرها قد أساءت إليه في محيط عمله؛ حتى ولو كان هدفها من ذلك حمايته من الانجراف إلى هاوية تدمير الأسرة، وإنما أيضا لأن مثل هذه الإجراءات «الانتقامية» تضفي على القصة التي يعيشها الزوج وصديقته ظلالاً رومانسية، مغلفة بالشجن والإثارة الانفعالية التي قد تعمق العلاقة بينهما، وتزيد من روابطهما معاً، وليس العكس كما يتصور آخرون.

«فاضطهاد» المجتمع المحيط لبطلي القصة العاطفية الماثلة، قد يؤدي غالباً إلى «توحدهما» في مواجهة الخطر المشترك الذي يواجهانه معاً، وليس إلى انفصالهما واقتناعهما بخطأ ما يفعلان، وقد يضفي كذلك على كل منهما شيئاً من إهاب «البطل الرومانسي»، الذي يغالب أقداراً أقوى منه تريد أن ترغمه على التخلي عن «حبه»، ولكن هيهات أن يفعل أو يستسلم بعد كل ما تحمل من «تضحيات» غالية في سبيل هذا الحب «العظيم».

وما دام الجميع قد تكتلوا ضدنا - هكذا يقول بطلا مثل هذه القصة لنفسيهما غالباً - فلم يبق لكل منا سوى الآخر، ولابد أن نزداد تلاحما وارتباطاً لمواجهة هذه الأقدار «الظالمة»، وإلا ذهبت كل معاناتنا السابقة هباء.

ولا عجب في ذلك يا سيدتي؛ فالإنسان يميل بالفعل - في بعض الأحيان - لأن يعتبر نفسه شهيداً لظروفه وأقداره، التي يتوهم أنها غير رحيمة به. والضغط الشديد عليه في مثل هذه الظروف، قد يستثير فيه إرادة التحدي والإصرار على ما يفعل، أكثر مما قد يرده إلى الطريق القويم.

ولقد قلت مراراً إن أفضل ما تفعله الزوجة التي يخونها زوجها، إذا كانت راغبة في استعادته، وليس في الانفصال عنه، هو أن تتعامل بحكمة الأم، التي تشفق على ابنها من استمراره في الخطأ الذي يهدده بالدمار، وتأمل في عودته إلى الطريق القويم بإشعاره بالذنب تجاهها، بلا صخب ولا ضجيج ولا استعداء للآخرين عليه؛ فلا تقدم له المبررات النفسية، التي ينقب هو عنها؛ ليقنع نفسه بأنه لم يظلمها، حين نقض عهد الوفاء معها، وإنما تتمسك دائماً بأن تظل «المثال» الأخلاقي المناقض للمثال الآخر المغامر، الذي لم ير ما يمنعه من التورط، في قصة عاطفية غير مشروعة مع زوج وأب لأطفال صغار..

وهذه المقارنة الصامتة في أعماق الزوج، والتي تزيد من معاناته مع الإحساس بالذنب، قد تكفي وحدها - في أحيان كثيرة - لإرجاع ذوي الضمائر الحية والقلوب الحكيمة عن غيهم، بعد إبحار قصير في بحر المغامرة.

أما الحرب الشعواء الضارية على الزوج الشارد، فلا عائد لها غالباً إلا اقتناعه الزوج بما يحاول أن يبرر به لنفسه - منذ البداية - إقدامه على خيانة زوجته والارتباط بغيرها.

وعلى أية حال يا سيدتي... فلقد بلغت الآن مفترق طرق، عليك أن تختاري من بينها ما ترين فيه صلاح أمرك وأمر أطفالك الثلاثة، فإما أن تراجعي حياتك مع زوجك، وتحاولي اكتشاف الثغرات والأخطاء، التي سمحت له بالشرود بعيدا عنك والارتباط بغيرك، وقد تسفر هذه المراجعة عن الاستعداد لإيجاد نقطة التقاء جديدة مع زوجك، واستئناف حياتكما الزوجية وتنشئة أطفالكما معاً في بيت آمن مستقر، وقد تسفر عن تفهمك لبعض ما فاتك التنبه إليه في علاقتك بزوجك، فتتصلين به وتدعينه إلى كلمة سواء بينكما، يعترف عندها كل منكما بما يتحفظ على الآخر فيه، ويعد بتغييره والتخلص منه.

وهذا الاحتمال ليس مستبعداً رغم ظروف «القصة الشائعة»؛ لأن تخلي زوجك عن أطفاله الصغار الثلاثة، وعنك أيضاً ليس بالأمر الهين، حتى ولو كان يتوهم - في غمار قصته الرومانسية الحالية - قدرته عليه أو على احتماله. وإما أن يكون زوجك قد حسم أمره نهائيا على الانفصال عنك، واستكمال بقية فصول هذه القصة مع شريكته فيها بالزواج.

وفي هذه الحالة.. فمن واجبه الأخلاقي أن يسرحك على الفور بإحسان، وأن يكون عادلاً معك ومع أطفاله؛ فيؤدي إليك حقوقك كاملة، ويتحمل مسؤوليته المادية عن أطفاله، وهم في حضانتك، وقد يقبل بعد ذلك بالسماح لك باستمرار رعايتهم في حضانتك، إذا تزوجت من زميلك القديم، ليس لأنه غير راغب في ضمهم إليه، وإمنا لأن شريكته في الحياة الجديدة سوف يثقل عليها بكل تأكيد رعاية ثلاثة أطفال صغار، بينهم توءم في عمر عام واحد وبضعة شهور، وبالتالي فقد يكون الحل الملائم لكل الأطراف في مثل هذه الظروف، هو أن تستمري أنت في رعايتهم، حتى بعد زواجك، وأن تتعاملي مع زوجك فيما يتعلق بشئونهم، وزيارتهم في المواعيد الملائمة بلا مشكلات ولا منازعات، يدفع الصغار ثمنها الظالم.

فإذا أصر هو على أن يضمهم إلى حياته الجديدة عند زواجك.. فلا مفر من مواجهة الأمر الواقع، وتحمل تبعات اختيار زواجك مرة أخرى بعد الانفصال عنه، ومع الأمل الدائم في أن تبرأ النفوس من ضغائنها.. فلا تؤثر المرارات السابقة على تبادل رعايتهم مع أبيهم، وفقاً للظروف المتاحة.

وليس الأطفال في تقديري هم المشكلة العاجلة التي تواجهينها الآن، وإنما المشكلة هي أنني أخشى أن يكون زوجك كبعض من يواجهون هذا الموقف فيرغبون غالباً في إنهاء الحياة الزوجية الأولى بلا خسائر مادية من أي نوع، أو بأقل قدر ممكن من هذه الخسائر؛ ليبدأوا حياتهم الجديدة في ظروف أفضل، فيعمدون إلى إساءة معاملة الزوجة، حتى تهجر بيتها، كما فعلت أنت، ثم يذرونها على حالها هذه انتظاراً لأن تطلب هي لطلاق منهم، فيكون شرطهم لذلك هو أن تتنازل عن حقوقها المادية لديهم، ولست أعرف شيئاً أبعد عن العدل الإنساني والخلق القويم والدين الصحيح، وأدنى إلى الأنانية والفجور والروح المادية البغيضة من ذلك.

فإذا كان مفهوما أن تتنازل الزوجة طواعية وبلا ضغط عليها من أي نوع - عن هذه الحقوق - أو بعضها، لأنها هي الساعية إلى الانفصال والراغبة فيه، فكيف نفهم أن يعمد ذو نخوة إلى إطالة فترة تعليق زوجته التي يرغب بالفعل في طلاقها؛ ليتزوج غيرها بلا عشرة ولإطلاق؛ انتظاراً لأن تجيء المبادرة منها، فيحق له أن يزعم أنها الساعية في الطلاق، ويطالبها بالتنازل عن حقوقها لديه، كأنما كان ينافسها في مباراة معيبة للاحتمال والصبر على هذا الوضع الشاذ، حتى تضيق بها الحيل، وترفع راية الاستسلام قبله!

ولا هدف لمن يفعل ذلك إلا التخلص من الأعباء المادية للانفصال، حتى إذا خارت قوى زوجته قبله وطلبت الانفصال متنازلة عن حقوقها، كان انتصاره في مثل هذه المعركة انتصاراً شائناً، الهزيمة أشرف منه، وأقرب إلى معاني الرجولة، وتحمل مسؤولية الإنسان عن أفعاله واختياراته في الحياة.

بل وماذا ينتظر أيضاً ممن يرضى لزوجته بمثل هذا الوضع لهذه الأسباب وحدها، إذا انهارت مقاومتها، وهي مازالت تحمل اسمه أمام إغراء الكلام المعسول الجميل، الذي تسمعه من غيره من الرجال في فترة مباراة الصبر، إلى أن يستسلم الخصم بلا قتال..

ألا يدفعني ذلك لأن أجازف بالقول إن مثل هذه الزوجة إذا أصابت إثماً خلال فترة التعليق الطويلة هذه فإن بعض أثمها على زوجها الذي لم يصلح ما بينه وبينها، ولم يحررها في الوقت نفسه من ارتباطها به.

إنني على أية حال يا سيدتي لا أرى أملاً كبيراً في مناشدة أب لثلاثة أطفال أن يضع حداً لقصته الشائعة مع زميلته ويستعيد زوجته ويستأنف حياته معها على أسس جديدة، تلبي له ما يريده منها، لأن من لم يؤثر فيه فراق ثلاثة أطفال صغار، أكبرهم في الثامنة من عمره، لن تؤثر فيه أغلب الظن كلماتي أو كلمات غيري.

ولكني ألمس - من ناحية أخرى - في ثنايا كلماتك أنك ترغبين في العودة إليه، ليس فقط بإحساس الأم التي ترغب في سعادة أطفالها وإنما أيضاً بقلب الزوجة، التي لم تفقد بعد الأمل في زوجها، ومازالت تحتفظ له بنصيب كبير من مشاعرها، ولا تتخيل - رغم كل ما جرى - أن تنطوي صفحتها معه على هذا النحو، فإذا كنت قد بدأت كما تقولين «تشعرين» بزميلك القديم، فما حدث ذلك إلا تلهفاً من النفس، التي اهتزت ثقتها في جدارتها بحب الرجل، على أن تستعيد بعض هذه الثقة الهاربة منها..

واذا كنت قد بدأت « تسمعين » للكلام الجميل، الذي يهمس لك به هذا الزميل القديم، اعتقاداً منك أن «السماع» فعل سلبي، ولا يورطك في الخطأ كما تتصورين فاني أقول لك إنه فعل إيجابي مكتمل الأركان، وشديد الخطورة عليك، لأنه قد وضع أقدامك بالفعل - ومن حيث تدرين أو لا تدرين - على خط البداية، الذي إذا خطت عليه الزوجة، تعذر عليها أن ترجع منه بغير أن تكابد إثم الاقتراب من الخيانة، التي تبدأ دائماً «معنوية»، تكتفي بالسماع والصمت وعدم قطع

الخيوط وتتطور غالبا إلى ما هو أكثر من ذلك، وقديما قال الفقيه المحدث أبو سفيان الثوري: إن أول العلم الصمت، ثم الاستماع إليه، ثم العمل به!

وأظن أن هذا هو أيضاً الشرك الخداعي نفسه للنفس، الذي يمضي فيه الإنسان، حين يسمح لنفسه بما يتصوره عملاً سلبيا لا يورطه في الخيانة حتى ليحق لي أن أقول إن أول الخيانة الصمت على محاولة طرف آخر الاقتراب منا رغم وضوح القصد ثم الاستماع للكلام الجميل.. ثم التأثر به!

فانقذي نفسك يا سيدتي من هذه الحافة الخطرة بالاتصال بزوجك على الفور، وحسم الوضع كله حسماً واضحاً، لا يدع مجالاً لأي تأويل، وذلك بالعودة إليه والبدء معه من جديد بعد كل ما جرى، أو بفصم رباط الزوجية بينكما واختيار كل منكما لطريق جديد، بعيداً عن الآخر. ولا بديل لذلك.. ولا عائد لإطالة هذا الوضع المعلق بينكما، إلا تماديه هو في الخطأ

واقترابك أنت أيضاً من رماله الناعمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الأمـــــاني

ترددت كثيراً قبل أن أكتب إليك لأنني إنسان من نوع غريب خلقت لكي أتعذب وأتألم، وأصدقائي هم المرض والقلق واليأس والعذاب!

فأنا شاب عمري 39 عاما، أعمل مدرسا ثانويا بمدينة صغيرة، قريبة من القاهرة، توفيت أمي وأنا في العاشرة من عمري، وكنت شديد التعلق بها، وبعدها مات أبي، وكان قاسيا، وأذاقني كل أنواع التعاسة والشقاء والبؤس، لكن يرحمه الله ويسكنه جنته، ثم تخرجت وعملت، وأعيش وحيدا بمفردي في شقة بمنزلنا بعد وفاة أبي.

أما السبب في عدم زواجي حتى الآن.. فهو أنني مريض بالقلب منذ طفولتي، وعانيت كثيراً من هذا المرض، الذي سلبني قوتي وصحتي، وقد أجريت لي جراحة بالقلب عام 1982، ثم جراحة أخرى عام 1990، ومازلت أعاني من متاعب القلب، ومن نفقات العلاج الباهظة، وأجور كبار أطباء القلب بميدان باب اللوق بالقاهرة؛ لأنه لابد لي من متابعة حالتي مع طبيب كبير.

ولقد كانت أمنيتي أن أتزوج، لأنني أعيش بمفردي، وأقوم بكل أعمال البيت بنفسي من نظافة وغسل الملابس والأواني وإعداد الطعام... إلخ. وهذه الأعمال ترهقني، كما أن وحدتي تسبب لي الاكتئاب والحزن، وقد فشلت كل محاولاتي للزواج لسببين: الأول عدم توافر الإمكانات المادية اللازمة لذلك، والثاني هو رفض أهل العروس دائما قبول شخص معروف في بلدته، بأنه مريض بالقلب، ويعاني دائما من الإجهاد والتعب لأقل مجهود، ولا يعرف الناس أنني إنما أعاني من متاعبي النفسية، بأكثر مما أعاني من مرض القلب.

كما كانت أمنيتي أن أكون كاتباً في إحدى الصحف أو المجلات، أو أن أكون ممثلاً لأن وجهي يساعدني على ذلك، وكانت أمنيتي كذلك أن أمتلك أرخص سيارة في الوجود، لأن المسافة بين بيتي وبين عملي كبيرة وترهقني، فلم تتحقق لي واحدة من هذه الأماني حتى الآن، فلم أتزوج، ومازلت أعاني من الوحدة والألم النفسي، ولم أصبح كاتبا، ولا ممثلاً، ولم أستطع شراء سيارة رخيصة قديمة، تخفف عني حتى الطريق.

إن الماضي المؤلم يطاردني دائما، ولست أرى المستقبل، وإنما أشعر بدنو الأجل، ولا أخاف من الموت، بل أرغب فيه؛ لكي أستريح من متاعبي النفسية والصحية، ولست أعرف في الحقيقة لماذا أكتب لك هذه الرسالة، ولكني أشعر أنني قد نفست بها عن بعض أحزاني.. فهل عندك ما تقوله لي يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم يا صديقي لدى الكثير مما أريد أن أقوله لك، ولكني سأضطر للإيجاز؛ لكيلا أكرر ما سبق أن قلته من قبل في حالات مشابهة، فمن حق كل إنسان أن يحلم لنفسه بما يشاء، ومن واجبه تجاه نفسه أن يسعى بالطرق المشروعة لأن يحقق أمانيه في الحياة، هدفاً وراء هدف بالتدريج، وبالكفاح الطويل عبر رحلة العمر، وليس دفعة واحدة، ولا في مرحلة سنية واحدة! ولا غرابة في ذلك؛ لأن الحياة لا تهب أحداً كل ما أراد في اللحظة نفسها وإنما تحقق له في كل مرحلة من عمره هدفاً، يتفق وطبيعة هذه المرحلة، وبشرط أن تكون أمانيه وأهدافه في الحياة بسيطة وقريبة وفى متناول يده، إذا كافح بإخلاص للوصول إليها، وليست من قبيل أحلام اليقظة.. أو طلب المستحيل، الذي لا تؤهله لإدراكه قدراته ولا ظروفه ولا طبيعة الأشياء بصفة عامة.

وخلال سعيه المشروع لنيل ما يريد ويحلم به لنفسه عليه دائما أن يؤمن بأنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، فيرضى بما استطاع الحصول عليه، ويتعزى عما قصرت عنه أمانيه بأنه لم يقصر في بذل الجهد لنيلها.

وفي استطاعة الإنسان دائماً أن يفلسف حياته، وأن ينظر إلى أهداف الحياة كلها نظرة فيلسوف يرى العالم ألعوبة كما قال جمال الدين الأفغاني فما ناله منها، لن يبلغ به الجبال طولاً، مهما عظم شأنه، وما فاته منها لم يكن ليستحق أن يقتل نفسه حزناً عليه، لأنه قدر الله وكما شاء فعل، ولأنه «وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ».

فإذا شكا بعد ذلك من جانب من جوانب النقص في حياته، رأى فيه بنظرة الفيلسوف هذه ما لا يراه الآخرون من أوجه الخير الخفية، وأحال شقاءه به إلى رضا وقناعة، كما فعل الفقيه المعذب ابن تيمية، حين تعقبه الولاة بالحبس في أكثر من بلد، وبالنفي من أكثر من بلد فقال: «إن حبسي خلوة وإخراجي سياحة.. وقتلى شهادة! «

وإذا فشل المرء في تحقيق أمنية، بدت له في شدة حرصه عليها، وكأنها غاية الكون، قال لنفسه: «وما أدراني أنني كنت سأسعد بها لو حققتها»، وتحول عنها إلى هدف آخر، قريب المنال، ويتلاءم مع ظروفه وقدراته، فالفشل قد يكون بداية للنجاح في طريق آخر من طرق الحياة، لعله كان من البداية هو الطريق الأنسب له، لولا أنه قد تعلق قلبه بغيره.

والأمثلة على من تمنوا في بداية حياتهم شيئاً وفشلوا في نيله، فحققوا في طريق آخر مالم يكونوا ليبلغوا بعض شأوه، لو كانت الأقدار قد استجابت لهم، وحققت أماني الشباب الأولى لا حصر لها ولا نهاية، ويكفي أن أقول لك إن الجنرال فرانكو رئيس إسبانيا العنيد، لأكثر من 25 سنة، كان يتمنى في شبابه أن يصبح ضابطاً بحريا، ولكنه فشل في الالتحاق بالأكاديمية البحرية الإسبانية في طليطلة، وربما لو كان قد نجح في الالتحاق بها، لأنهى حياته أدميرالا مجهولاً في الأسطول الإسباني.

فإذا كنت أنت قد تمنيت أن تعمل كاتبا أو ممثلا، ولم تحقق أمنيتك فدعني أقل لك إن إجادة الإنسان لأي عمل يمارسه، تكفي في حد ذاتها لأن تشعره بالرضا عن نفسه وبالجدارة والامتياز؛ فمقياس التفاضل - إذا كانت ثمة ضرورة للتفاضل - ينبغي أن يكون في إتقان العمل الذي يمارسه الإنسان والإخلاص له، وليس في نوع العمل نفسه؛ لأن من طبيعة الحياة أن تتنوع مهام البشر وأعمالهم المختلفة فيها، وأن يحتاج المجتمع إلى كل هذه الأنواع بلا استثناء ولا تفاضل. وما أسهل أن يحول الإنسان الأمنية التي حالت دون تحقيقها الظروف، إلى «هواية» يمارسها، إلى جانب عمله الأساسي فيرضى بذلك نفسه، ويعبر عن ملكاته؛ لأن أماني الإنسان لنفسه لا حد لها ولا نهاية، وليس من طبيعة الحياة أن تستجيب لكل ما تهفو إليه نفوس البشر، وإلا لأصبح الجميع فجأة رؤساء دول ورؤساء وزارات ووزراء ورجال أعمال من أصحاب المليارات، وفنانين، وأدباء، وأطباء، وعلماء مشاهير فقط، ولخلت الحياة بالتالي من البشر العاديين من أمثالنا ممن كان يسميهم الفيلسوف الألماني نيتشة «تراب الإنسانية»، وهم قوام الحياة وعمادها، الذي لا تقوم للحياة قائمة دونه.

وإذا أردتني أن أقدم إليك مثالاً واحدا على المساحة الشاسعة دائما بين بحر الأماني الواسعة وجدول الانجازات الضيق فإني أقرأ عليك ما كتبه العقاد العملاق وهو في أوج مجده وشهرته حين كتب يقول:

«كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه، ولا أرى أحدا بلغ، ولا أرى أحدا بلغ كل ما طلب، كما أني لم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل حياتي ولا قريبا من الغاية، وإذا قدرت ما صبوت إليه بمائة في المائة فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين».

هذا ما قاله العقاد عن نفسه.. فلعلك إذا قدرت ما صبوت أنت إليه، وأنت صبي صغير إلى ما حققته الآن، وأنت مدرس ثانوي في مرحلة النضج من حياتك، فلربما زاد عما حققه العقاد بهذا المقياس القاسي!

وإذا كنت لم تحقق أملك في شراء سيارة رخيصة، تعينك على ظروفك المرضية، أعانك الله عليها.. فإن أديبنا العظيم نجيب محفوظ لم يمتلك ذات يوم سيارة خاصة به، ففي مراحل شبابه ورجولته وكهولته، لم تسمح له الظروف المادية بشراء سيارة، وحين سمحت له بها الإمكانيات فيما بعد اعتذرت «الصحة» عن عدم السماح له بهذه الأمنية البسيطة!

فإن بقي شيء يستحق أن تأسى عليه حقا، فهو أملك العادل والمشروع في أن ترتبط بشريكة حياة، تخفف عنك وحدتك، وتعينك على أمرك وتدفع عنك شبح الاكتئاب والحزن.. والرغبة في الموت، لأن رخص الحياة مهما كانت آلامها فتنة، وتمنى الموت إثم، أرجو الله أن يعفيك منه.

ولقد قرأت الشهادة الصحية المرفقة برسالتك، ووجدت مرضك المسجل به لا يحول فيما أعلم بينك وبين الزواج، بل لربما كان الزواج مفيداً لحالتك الصحية، بما يوفره لك من استقرار نفسي وعاطفي واجتماعي، والكلمة الأخيرة في ذلك

بالطبع للأطباء المختصين، فإذا كان الآباء في مدينتك الصغيرة يتخوفون من ارتباط بناتهم بمن كانت له مثل ظروفك الصحية، فلماذا لا توسع دائرة البحث؛ بحيث تشمل السيدات الناضجات من ذوات التجربة السابقة في الحياة الزوجية، وكثيرات هن من يرحبن بمشاركة شاب مثلك حياته، والتعاون معك على أنواء الحياة

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

فريق متميزون
E-BOOK

الميراث المعنوي

لم أكتب رسالتي هذه إلا بعد تفكير عميق، خوفاً من أن ينكشف، أمري بين من يعرفونني، فأنا سيدة في الثالثة والثلاثين من العمر نشأت بين أب وأم على قدر عال من العلم والدين، وعشت حياة عائلية هادئة، وفى مستوى اجتماعي ومادي جيد، وقد شاء لي قدري أن أكون الابنة الوحيدة لأبوين، لم ينجبا غيري، فتمتعت بحنانهما ورعايتهما طوال مراحل عمري، وإن كنت قد افتقدت الإخوة والأخوات بعض الشيء.

وقد واصلت تعليمي بتفوق، حتى تخرجت في إحدى كليات القمة، وعملت بها عضوا بهيئة التدريس، وفي بداية عملي بهذه الكلية، ارتبطت بعلاقة حب طاهر مع أحد زملائي المعيدين، لمست فيه الأخلاق الكريمة، ورحب به أبي حين تقدم إليه بلا تردد، وقال لي إنه الشخص الذي يستحقني بالفعل، وتمت خطبتنا بلا مشاكل، وكانت فترة من أجمل فترات العمر، وتزوجنا بعد قليل، وكان حفل زفافنا ليلة من ليالي ألف ليلة، وسعدت بزوجي كثيرا وسعد بي، وأطمأن قلبا أبي وأمي، وسعدا بسعادتي وبتوفيقي مع شريك حياتي.

وبعد عامين فقط تزلزل كياني برحيل أبي عن الحياة، فشعرت حين وافاه الأجل، أنني قد أصبحت واقفة في العراء وبكيته بحرقة وحزنت عليه طويلاً، فلم تمض سوى بضعة شهور أخرى على رحيله حتى فجعت مرة ثانية برحيل أمي عن الدنيا، فأصبح الحزن حزنين وتحالفت على الأحزان، وتركت بصماتها على ملامح وجهي، وحالتي النفسية، ولم يخفف عني بعض حزني سوى زوجي الحنون الطيب.. وتنبهي إلى واجبي كأم لطفلين بريئين، وككل حزن في الحياة يبدأ كبيرا ثم يصغر، فقد تواءمت مع حياتي بعد حين وتمنيت في هذه المرحلة من عمري لو كان لي شقيق يشد من أزري، أو شقيقة أبكي على كتفها، وتبكي على كتفى، ونزور معا قبري أبوينا، ونحيي ذكراهما، ولكن أبي وأمي، رحمها الله قد تركا لي ميراثا ماديا، يدر عليّ دخلا كافياً، ولكنها لم يتركا لي ميراثاً معنوياً، يشد من أزري كالأشقاء والشقيقات.

ولقد شغلت نفسي بعملي وأبحاثي، وإدارة ما تركه لي أبي من أملاك، وزوجي وأطفالي؛ فنسيت أحزاني واستعدت سلامي النفسي، واطمأننت إلى يومي وغدي.. فإذا بي أفيق من ذلك كله بعد بضع سنوات أخرى على زلزال أشد وإذا بالأقدار الحزينة تسلبني أيضا وبغير سابق إنذار - زوجي المثالي، الذي اعتبرته أخي وأبي وأنيسي الوحيد في الحياة، ويغيب الزوج والحبيب الغالي تحت الثرى، بعد رحلة زواج دامت عشر سنوات.. فلم أحتمل وطأة الحزن أكثر من ذلك.. وعجزت حتى عن تقبل العزاء في زوجي الراحل، وانهارت حالتي النفسية؛ حتى احتجت إلى استشارة الطبيب النفسي والتردد عليه مرتين كل أسبوع لبعض الوقت

وبعد شهور من رحيل زوجي عن الحياة تلفت حولي لأراجع حياتي؛ فوجدتني أرملة حزينة في الثالثة والثلاثين من العمر.. وأما محطمة نفسيا لطفلين صغيرين،

تفتحت أعينها على اليتم والحزن وملابس الحداد، فحاولت مقاومة تيار الأحزان وتعويضها عما فقداه بأقصى ما أستطيع من جهد، ولكن كيف تستطيع ذلك من كانت وحيدة مثلي، لا أخ لها، ولا أخت، ولا زوج.

لقد اشتدت حاجتي النفسية من جديد إلى الميراث المعنوي، الذي حرمت منه.. وتمنيت لو كان أبي وأمي قد أنجبا لي شقيقاً، يسأل عني أو أختا تشاركني أحزاني، ووجدتني فجأة أكره كل شيء حولي..

وأشعر بالسخط على كل شيء، فحتى أبي وأمي، لم أعد الآن أدعو لهما بالرحمة، كما كنت أفعل دائما؛ لأنهما حرماني من الإخوة الذين يعينون شقيقهم في مثل هذه الظروف المؤلمة، ولقد كان ذلك في مقدورهما، ولكنهما فضلا أن يدمراني بغير وعي إلى آخر العمر، فإذا كان لي من عزاء عن حياتي ووحدتي ويتم أولادي، وترملي في سن الشباب.. فهي أن الله سبحانه وتعالى، وهو المطلع على كل شيء، سوف يجعل مثواي الجنة بإذن الله، وهذا هو أملي ومطمعي، والسلام عليكم ورحمة الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

حين تضيق النفس بأحزانها ويمتلئ الإناء بما فيه من الهموم.. قد يتلفت البعض أحياناً حولهم؛ ليبحثوا عن «طرف» خارجي، يحملونه بعض مسؤولية هذه الأحزان التي ضاق عنها صبرهم، وهي «حيلة نفسية دفاعية»، قد يلجأ إليها الإنسان بلا وعي منه في بعض الأحيان، فيتهم «الآخرين» بأنه هم الذين صنعوا مأساته التي يضيق بها، مع أن عقله الواعي يسلم في الوقت نفسه بأنه لا ذنب لأحد في أقدار الإنسان الحزينة..

ولقد اختارت نفسك الحزينة أن تتهم أبويك الراحلين بالمسؤولية عما تعانين من وحدة الآن في الحياة بعد رحيل زوجك؛ لأنهما لم ينجبا غيرك من الأشقاء وحاولت أن تبرري ذلك لنفسك بأنهما قد كان في مقدورهما أن يفعلا ذلك، ولكنها قد «آثرا» أن «يدمراك» إلى نهاية العمر مع أنه لا دليل على أنهما قد اختارا لك بإرادتهما أن تكوني ابنة وحيدة، ولا دليل أيضاً على أنه قد كان في مقدورهما بالفعل أن ينجبا غيرك، ولم يفعلا؛ إذ إن الأقرب إلى منطق الأشياء، هو أن يتمنى الأبوان غالباً أن ينجبا أخا واحدا، أو أختا واحدة على الأقل للابنة الوحيدة، خاصة إذا كانا من ميسوري الحال كما كان أبواك، وعلى الرغم من ذلك فإن عقلك الباطن، الذي يضيق الآن بواقعك الحزين

ويعجز عن احتمال ما تعرضت له من ترمل، وفقد لشريك الحياة في سن الشباب، قد «آثر» أن يتحول باللوم النفسي إلى الأبوين اللذين قدما لك كل شيء.. ليس لأنهما يستحقان هذا اللوم بالفعل، وإنما لأنه يشفق على النفس من التوجه بهذا اللوم إلى الأقدار الحزينة، التي صنعت هذه الظروف كلها، فلوم الأبوين هنا

والتوقف عن الدعاء لهما بالرحمة، لا، يعكسان حقيقة مشاعرك تجاههما - لكنها يعكسان فقط إحساسك المؤلم بالعجز عن مواجهة هذه الأقدار الحزينة.. وتهيبك النفسي من لومهما خوفاً من عقاب الله للمتسخطين على أقدارهم.. وهكذا، فلقد حدثت عملية «تحويل» نفسي للهدف، الذي ترينه أنت مستحقاً للوم، فأصبح الأبوين، بدلاً من أن تكون الأقدار، فإذا كان ذلك يعكس في الوقت نفسه عمق الوازع الديني في أعماقك، فكيف غاب عنك، وأنت المثقفة المتدينة.. ما في لوم الأبوين على ما لا حيلة لهما فيه من إثم لوم الأقدار على ما اختارته للإنسان من حياة؟

ومن أدراك يا سيدتي، أنه لو أن أبويك قد أنجبا لك أخا وأختا أنهما سيكونان من الصالحين الذين يرعون حق الإخوة، ويشدون من أزر شقيقتهم في محن الحياة، بل ومن أدراك أيضا أنك - مع افتراض وجودهما - كنت سترضين عن أقدارك أو تتصبرين عليها، مع تسليمي الكامل بأهمية دور الإخوة الصالحين في مساندة الإنسان وإعانته على الصمود لاختبارات الحياة.

يا سيدتي لا لوم لأحد على أقداره الحزينة.. ولا لوم أيضا على الآخرين فيما جرت به عليه المقادير، فسلمي بهذه الحقيقة في أعماقك لتستعيدي سلامك النفسي الهارب، وتقوي على مواجهة أقدارك بشجاعة، فالواقع المؤلم قد يرغم الإنسان أحياناً على أن يحيا حياته بشكل صحيح، حين يكف عن توهم وجود آخرين مسؤولين عنها

وفي تقديري أنك أكثر حاجة الآن لاستشارة الطبيب النفسي، مما كنت عليه عند رحيل زوجك، فلا شك في أنك تعانين اكتئابا واضحا، يفقدك الإحساس بقيمة الأشياء ويصبغ رؤيتك للحياة بلون قاتم. ويسلبك القدرة على تقبل الواقع والحياة.

وبشيء من التدعيم النفسي، عن طريق الطبيب المتخصص.. سوف تتجاوزين بإذن الله أحزانك.. وتقوين على مواجهة وحدتك وتتشجعين على التطلع للمستقبل، ومواجهته بما يلائمك من خطط ملائمة لحياتك المستقبلية، فأنت مازلت شابة، والحياة ممتدة أمامك.. والسبل مفتوحة لك كذلك على مستوى الحياة العملية.. وعلى مستوى الحياة الخاصة أيضا

وإذا كان شتاء الأحزان قد جاء، فليس الربيع ببعيد، كما يقول لنا الشاعر الإنجليزي، وكما ينبغي لكل إنسان مؤمن بربه وكتبه ورسله وملائكته وبقضائه وقدره خيره وشره، وباليوم الآخر أن يؤمن دائماً. وليس هناك من هو أجدر بنيل السعادة، ممن استوفى نصيبه كاملا من أحزان الحياة مثلك؛ فترفقي بنفسك يا سيدتي وبطفليك الصغيرين، اللذين يخسران كل شيء إذا واصلت الاستسلام للحزن والاكتئاب بلا مقاومة.. فهم الأمل.. والعزاء للقلب الحزين وهم أيضا الإخوة لمن لم يكن لهم أخوة مثلك.. وهم فدية الأعزاء الراحلين، ورمز امتدادهم في الحياة.. وما أغلاها من فدية.. وما أجملهم من عزاء..

ولسوف تجيئك جوائز الحياة تترى في الوقت الملائم، فترقبيها أيضاً، كما تترقبين الآن جوائز السماء.. والعاقبة دائما للصابرين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحرب الشعواء

أنا رجل قاربت الأربعين متزوج، ومتدين وزوجتي كذلك والحمد لله، وقد رزقت منها البنين والبنات.

وذات يوم ألقى الشيطان شباكه حولي عن طريق امرأة متزوجة، شاغلتني فاستجبت لها، ولم تتعد العلاقة بيننا الكلام والرسائل، مع تسليمي بأنها - رغم ذلك - علاقة محرمة، ثم أبلغ البعض زوجتي بأمر هذه العلاقة، وعلى الرغم من الجرح الدامي الذي سببته لها بذلك فقد شنت على الفور حربا شعواء، ليس على شخصي الخاطئ وإنما على كل من يمسني بكلمة أو يتقول عليّ بشأن هذه المرأة، ودافعت عني بكل قوتها في وجه الجميع برجاحة عقلها وبقلبها الكبير.

وقد اعترفت لها بما حدث حين واجهتني به وغفرت لي خطئي وسامحتني، فعاهدت نفسي بعدها ألا «أنظر» إلى أي امرأة أخرى في الوجود سواها، ومضت على هذه القصة ست سنوات كاملة، لم تشر إليها خلالها زوجتي مرة واحدة، ولو بلمحة، أو إشارة، كأنها لم تعبر سماء حياتنا، وأشعرتني دائما بأن ثقتها في قد تضاعفت بعدها، ولم تنتقص، فتعمق حبها في قلبي، وشعرت تجاهها دائماً بالحب والإعجاب والامتنان.

وما يدفعني لأن أروي لك هذه القصة الآن هو أن صديقاً لي يتعرض لهذه الظروف نفسها بتفاصيلها، ولكن زوجته قد شنت حربها الشعواء عليه هو، وليس على الآخرين كما فعلت زوجتي، وأشعرته بأنها قد فقدت الثقة فيه نهائيا، حتى كاد ينهار تماما، وتتحطم أسرته.

إنني أرجوك أن تناشد زوجة صديقي هذا أن تترفق به وتحتضنه وتقول له مثلما قالت لي زوجتي في هذه الظروف نفسها وهو:

_ لن أسمح لأحد بأن يأخذك مني..

وأرجو أن ينقذ الله هذا البيت من الدمار على يديك وشكرا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

التجربة خير برهان دائماً يا سيدي، ولقد علمتنا تجارب الحياة أن الزوجة حين تواجه مثل هذا الموقف.. فإنها تجد نفسها دائما أمام خيارين: الأول، هو أن تستسلم بلا مقاومة لطوفان الغضب الأعمى لكرامتها والرغبة الجارفة في العقاب والانتقام؛ فتدين زوجها بما فعل، وترفض العفو عنه، أو قبول اعتذاره، وتطارده بالشك واللوم والاتهام على طول الخط؛ فلا يكون لذلك من عائد غالباً إلا انهيار الأسرة، أو تسميم الحياة بالشك والاتهام إلى مالا نهاية، فاذا استمرت الحياة

الزوجية تفضيلا لمصلحة الأبناء.. فإنما يكون استمرارها جحيما مقيما للزوجين.. كما يكون انهيارها جحيماً مقيماً للأبناء.

والخيار الثاني هو أن تتعامل مع الموقف بقلب الأم، الذي يرفض الخطأ ولا يقبل به.. ولكنه يسعى في الوقت نفسه للإصلاح، وليس للعقاب والانتقام. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف.. فإنها تتعامل مع الطرف المخطئ بحكمة الأم، وليس بقلب الزوجة الغيور الغاضبة لكرامتها الأنثوية فقط، وتفتح الباب دائماً أمام مبادرات الإصلاح بأكثر مما تفتحه أمام نوازع الغضب والعقاب، وتتهيأ نفسيا للصفح والغفران، إذا قدم لها الطرف الآخر أبسط دليل، على أنه قد وعى درس التجربة، واستشعر الندم عليها.

وفي سبيل ذلك فقد تتغاضى بوعي وحكمة عن بعض مالا يرضى كرامتها كأنثى؛ أملاً في الإصلاح، واختياراً لإنقاذ الأسرة من الدمار، ومنطق هؤلاء الزوجات الحكيمات في الشرق والغرب على السواء.. هو أنهن يواجهن معركة، لا يتحقق الفوز المشرف فيها بالتصادم المستمر مع الزوج إلى حد فقده وانهيار الأسرة، وإنما يكون الفوز الحقيقي فيها باستعادته، وحرمان الأخرى من الاستئثار به، وفتح أبواب التكفير أمامه عن خطئه في حق زوجته، والرضا بما يقدمه لها من قربى طلبا لعفوها وعودة الحياة الطبيعية بينهما بعد هذه الزوبعة.

وفي كل الأحوال.. فإنه لا يحقق هذا الهدف أبدا اتخاذ موقف عدواني صاخب من الزوج ولا ملاحقته بالشك والريبة في كل تصرفاته، وتحويل حياته إلى جحيم أبدي، وإنما يحققه أن تتجاوز زوجته بأسى خيانته لعهد الوفاء معها.. ومثل هذا الأسى لا يصنعه الغضب العدواني المدمر، وإنما يصنعه الحزن النبيل على الوفاء الضائع.. والدموع الصامتة التي تشعر المخطئ بخطئه..، وتستثير فيه الإحساس بالذنب تجاه من أخطأ في حقها بالتطلع لغيرها، مع استعداد الزوجة النفسي للتسامح، واعتبار ما حدث «مجرد زلة، وليس سقوطا» على حد تعبير أحد الحكماء.

وقد يبلغ الفضل ببعض الزوجات الحكيمات أن يراجعن أنفسهن في مثل هذه الظروف، وأن يتلمسن الأسباب التي دعت الزوج للوقوع في هذه الزلة، ويصلحن منها، وقد يبلغ بهن الفضل أيضا أن يتجاهلن - فيما يلي ذلك من حياتهن مع أزواجهن - هذه الزلة، فلا يشرن إليها أبدا.. ولا يثقلن ضمائر أزواجهن بعد الصفح بتذكيرهم بها كل حين.. ولا يسمحن لها بإفساد حياتهن مع أزواجهن.. ناهيك عن السماح لها من الأصل بتدمير هذه الحياة من أساسها!

فأرجو أن تراجع زوجة صديقك نفسها؛ وأن تستفيد بتجربة زوجتك الفاضلة معك؛ لتعرف أن من أخطاء الحياة مالا ينبغي أن يتوقف الإنسان أمامه إلى الأبد، وأن التشدد المغالى فيه حتى في الحق، قد تكون له عواقبه غير المرضية في كثير من الأحيان؛ إذ لا يكفي أن يكون الإنسان على حق في موقفه، وإنما يحتاج الإنسان أيضا إلى الادراك، وحسن الفهم، والحكمة؛ لكي يتجنب عثرات الحياة.

ولست أنكر على زوجة صديقك في النهاية، أن يساورها الشك في تصرفاته الشخصية، بعد ما ظهر لها من عدم وفائه، لكني أطالبها - من ناحية أخرى - بعدم الاستسلام تماما لهذا الشك إلى الحد الذي يفسد عليها الحياة.. ويحرمها من إحساس الأمان.. ويحرم زوجها نهائيا من الثقة، ويقدم له «المبرر النفسي» لتبرير خطئه السابق في حقها!

ذلك أنه مما يشجع أيضا الاشخاص على التزام الطريق القويم في الحياة، هو أن بثقتنا فيهم.. وبأنهم جديرون بهذه الثقة، نشعرهم حتى على الرغم مما تورطوا فيه من أخطاء سابقة قبلنا اعتذارهم عنها.. وسلمنا لهم بأنها لا تعبر عن شخصياتهم الحقيقية؛ فالإنسان يميل غالبا لأن ينهض بالثقة التي يضعها الآخرون فيه، وحتى ولو كان قد خانها في بعض لحظات الضعف البشري العابرة.

ونصيحتي لزوجة صديقك، هي أن تحاول التجاوز عما حدث، وأن تشجع مبادرات زوجها للرجوع عن الخطأ واستعادة الثقة المفقودة فيه، بمبدأ «الثقة المبصرة» التي لا تتشكك في استعداده وأن تتعامل معه للعودة للطريق القويم، ولا تركن في الوقت نفسه إلى ثقة الغافلين العمياء فيمن أهدر هذه الثقة من قبل، ولن يطول الوقت؛ حتى يثبت لها زوجها أنه قد تعلم الدرس، واستفاد بأخطائه.. وأصبح جديرا بثقة زوجته فيه وحبها واحترامها له من جديد، كما فعلت أنت مع زوجتك، وكما أرجو أن يفعل صديقك مع زوجته أيضا بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

طعم النجـاح

أنا سيدة في أواخر الثلاثينيات من عمري، أعمل بوظيفة لها علاقة بعلم النفس، وأم لولدين وبنتين وصلت كبراهما إلى المرحلة الثانوية وزوجي رجل فاضل في أواسط الأربعينيات من عمره، ويشغل منصبا مرموقا.

وقد مضت حياتنا معا سعيدة وهانئة، فلم ينغصها من حين إلى آخر، إلا بعض الموجات الطارئة من الغيرة الشديدة من جانب زوجي عليّ، ثم هدأت هذه الموجات الطارئة بعد أن كبر الأبناء، وأضفوا على حياتنا البهجة والمرح، وامتصوا غيرة أبيهم على زوجته بنوع من الدعابة؛ خاصة من جانب ابنتنا الكبرى، التي لعبت دورا مهما في امتصاص هذه الموجات، واستقرت حياتنا الأسرية تماما والحمد الله منذ بضع سنوات، واختفى كابوس الغيرة منها نهائيا كأنما كان سرابا وتبدد.

واكتملت لنا أسباب الهناء، فراح زوجي يواصل نجاحه في عمله، وينتقل من نجاح إلى نجاح، حتى بلغ درجة المدير العام.. وراح يتطلع إلى شغل منصب المدير العام في هيئته بعد إحالة المدير الحالي للمعاش، بوصفه المرشح الطبيعي للمنصب، لكفاءته في عمله ولشغفه الشديد به وتقاريره الممتازة فيه، فضلاً عن نجاحه في كل أمور حياته الأخرى، حيث لم يذق أبدا مرارة الفشل في حياته.. وحيث أصبح لطعم النجاح نشوة خاصة لديه، كما أكمل نجاح الأبناء هذه الصورة العائلية البديعة لأسرة سعيدة وموفقة وناجحة، فكانوا دائما في عداد المتفوقين دراسيا، فضلا عن أدبهم وتهذيبهم.

ولقد أصبحت مسألة تعيين زوجي مديرا عاما لإدارته أو هيئته مسألة وقت ليس أكثر، وسوف تتحقق بمجرد بلوغ المدير السن القانونية فإذا بزوجي يتعرض لأول عاصفة فشل في حياته، وإذا بمدير آخر يعين في المنصب لكبر سنه عن سن زوجي فيصاب بإحباط شديد، ويدخل في صراعات مريرة مع زملائه ورؤسائه، وتنهار صلاته الاجتماعية حتى مع اخوته، ويتعرض - كما قال الأطباء - لما يشبه الصدمة العصبية القاسية.

وبعد أن كان زوجي شغوفا بعمله ويذهب إليه مبتهجا ومتشوقا، شعر بأنه قد سقط من فوق قمة النجاح إلى هاوية الفشل، وأصبح لا يطيق الذهاب للعمل، ويشعر بأن كل من حوله يكرهونه، وإذا ذهب إليه، لم يستطع البقاء به أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر، ثم يرجع للبيت، ويبقى به أياما فلا يغادره، وراقبت ما طرأ على زوجي من تغيرات بقلق وإشفاق شديدين، وأشرت عليه بأن ينتقل من هذا العمل إلى عمل آخر، إذا كان لا يطيق الاستمرار فيه، ولكن الأحوال تدهورت أكثر وأكثر، وبدأ زوجي يتردد على الأطباء النفسيين؛ فشخصوا حالته بأنها حالة قلق نفسي واكتئاب، ووصفوا له العقاقير المهدئة، التي تجعله يكاد لا يستطيع الحراك.

وازداد قلقي على زوجي بحكم دراستي لعلم النفس، وإدراكي لصعوبة علاج الاكتئاب النفسي؛ لأن مريض الاكتئاب هو طبيب نفسه أولا وأخيرا، وبيده أن

يقود. سفينته إلى شاطئ الأمان.. وبيده أيضا أن يغرقها في بحر الاكتئاب بلا نجاة، إذا استسلم له.

ورغم إرادة زوجي القوية.. فإنه لم يصمد لهذا الاكتئاب، وانخفض وزنه سريعا وشحب لون وجهه، وراح يتدهور من فشل إلى فشل في عمله، وتوالت عليه الإنذارات والمشاكل، ثم انتابته فجأة حالة غريبة من عدم الاكتراث بكل شيء ففقد الاهتمام بالعمل وبي وبأبنائه، ولم يعد يسأل عن أحوالهم.. وفترت بل انقطعت علاقاته الاجتماعية، وأصبح شيخا حزينا في السبعين من عمره، وفرض على نفسه العزلة التامة، وخيم جو ثقيل من الحزن والكآبة على أسرتنا.

وانعكس كل ذلك بدوره على في عملي؛ فأصبحت شديدة العصبية مع من حولي، وتسرب الحزن والغم إلى نفوس أطفالنا الصغار، فلم يعودوا يلعبون كأقرانهم، وأصبح زوجي يخشى أن يسير بمفرده في الشارع، وزادت العقاقير المهدئة من ساعات نومه، وأصبح في حالة يرثى لها من اللامبالاة وعدم الاكتراث للأشياء، حتى تمنيت لو رجعت إليه مرة أخرى موجات الغيرة الشديدة السابقة، التي كنت أشكو منها من قبل؛ لأنها أرحم كثيرا من عدم اكتراثه بي وبأبنائه، وبكل شيء الآن!

إن الانسان المؤمن هو الذي يمتص صدمات الحياة ويتجاوزها، وزوجي رجل مؤمن وارادته قوية، بدليل ما حققه من نجاح في كل مراحل حياته، ولكني لا أعرف لماذا لم تنجح إرادته هذه في أن تعينه على امتصاص الفشل وتجاوزه هذه المرة، حتى حرت في أمره، وحار معي أطباؤه النفسيون. إنني أقول له دائما إن أصحاب الهمم العالية هم الذين يتغلبون على الإحباط بالصبر والإيمان والإرادة القوية، ولقد تحسنت أحواله النفسية بعض الشيء في الفترة الأخيرة، وجاءه منذ أيام زميل له بالعمل، وأكد له أن المكان الذي يعمل به يقدر جيدا ظروفه النفسية، وأنهم يطالبونه بالعودة لعمله مع وعد بمعاملته معاملة خاصة إلى أن يتغلب على ظروفه النفسية، ولكن زوجي لم يرجع بعد إلى العمل.

ولست أتمنى على الله شيئا الآن سوى أن يرجع لعمله مرة أخرى، ويستعيد إقباله على الحياة، وهو يقرأ «بريد الجمعة» بانتظام، ويتأثر بقصص أصحاب المشاكل، وبردودك الحانية عليها، فهل أرجوك أن توجه له كلمة.. لعل كلماتك تخرجه من سجن الإحباط، الذي يعيش فيه الآن وتعيد إليه الأمل مرة أخرى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يعرف الانسان نفسه أهو من أصحاب الهمم العالية.. أي من «أصحاب العزائم» بتعبير الصوفية، أم لا، حتى تمتحنه اختبارات الحياة وعثراتها ورياحها المناوئة؛ فالطريق السهل الذي ينتقل فيه الإنسان من نجاح إلى نجاح ليس اختبارا حقيقيا لهمته وعلو نفسه، حتى ولو كان قد حقق كل هذا النجاح بكفاءته ودأبه وكفاحه..

وقد يمضي الانسان معظم حياته وهو يعتبر بلوغ الأهداف التي يطمح إليها من طبائع الأشياء، فإذا ارتطم بصخرة قاسية اعترضت طريقه فجأة اكتشف هذا الاختبار فقط صلابة روحه أو هشاشتها، فاذا كان من أصحاب النفوس الكبيرة، سلم بأن الحياة نجاح وفشل وهزائم وانتصارات، وآمن بأنه ليس محبوب الأقدار، الذي ينبغي أن تتحقق له كل أهدافه في موعدها المحدد، ودون أدنى تأخير ووطّن النفس على قبول الهزيمة الطارئة وصبر عليها.. كما سعد من قبل بالانتصارات المتوالية، ولم يفقد إيمانه بربه ولا بنفسه ولا بخيرية الحياة، وواصل السعي الشريف في الحياة، غير غافل عما أجزلت له السماء العطاء فيه من قبل، ومؤمنا بأن من واجبه تجاه نفسه أن يسعى بالطرق المشروعة إلى أهدافه.

أما بلوغها فليس من شأنه، ولا من قدرته المحدودة؛ لأنه يتعلق أولا وأخيراً بإرادة إلهية تعلو فوق كل الإرادات، وتوزع الحظوظ بين البشر، لحكمة تجل على الافهام القاصرة، ولا يحق لأحد أن يعترض على ما قضت به.. أو ينكر على محظوظ ما غمرته به من عطايا.

وإنما يحق له فقط أن يلوم نفسه، إذا كان قد قصر في بذل الجهد والعرق لنيل اهدافه المشروعة ويسعى وراء هذه الأهداف باعتدال..، ويؤمن بأنه لا يحتكر الحق في بلوغها وحده، وأن هناك من قد تختصهم الأقدار بالفوز دونه، مستهديا في ذلك بهدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين قال: «اطلبوا الحوائج بعزة نفس فإن الامور تجرى بالمقادير»

وليس من عزة النفس، ولا من علوها، ولا من كرامتها البشرية، ولا من حسن الإيمان بالله، ولا من الرضا بقضائه وقدره أن يتهالك الإنسان على طلب شيء، حتى ليخيل إليه أن حركة الكون كله تتوقف على نيله له، فإذا لم ينله ارتجت عليه الأرض وانهار صريعا حسيرا، كأنما قد اختل ميزان العدل في الكون كله، فليس في الحياة كلها هدف مادي يستحق أن تتوقف عليه حياة الإنسان وسعادته وصحته وسلامه النفسي وأمان من ترتبط حياتهم بحياته ويتحمل أمانة المسؤولية عنهم على هذا النحو أبدا.

وما في الحياة كلها منصب واحد - مهما علا شأنه - يستحق أن تضطرب حياة الإنسان وحياة أسرته على هذا النحو المؤلم؛ لأنه لم يفز به، وقد تكون الإرادة الإلهية قد ادخرته لما هو أفضل منه وقد تكون قد حجبت عنه بحرمانه منه ما لم يكن يعوضه لو أصابه كل مناصب الدنيا.

وكرم الله وجه إمام المتقين علي بن أبي طالبٍ، الذي أوصى ولديه، فلم يوصهما بطلب الخلافة من بعده، وهما من هما فضلاً وتقوى، وإنما قال لهما: أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما.. وألا تبكيا على شيء زوى عنكما «

ورحم الله إمام المجددين محمد عبده، الذي قال إن الرجل الكبير يرى نفسه أكبر من منصبه، فلا يهلع إذا فارقه، والرجل الصغير يرى نفسه أصغر من منصبه، فيرتاع إذا فقده.

ولقد سئل الاديب العلامة الدكتور أحمد أمين، حين عين عميدا لكلية الآداب في الاربعينيات عما أضافه إليه المنصب الكبير، فقال: أنا أكبر من عميد وأصغر من أستاذ!

أفإن «زوى عنك» منصب المدير العام يا سيدي، تنهار وتسقط في هاوية الاكتئاب النفسي، وتضطرب نفسيا وصحيا، وتضطرب معك حياة أسرتك كلها على هذا النحو المؤلم؟

وأين علو نفسك.. وأين ثقتك بها.. وأين إيمانك بربك وبحسن اختياره لك، وإن عميت عنك بعض حكمته الإلهية؟

وأين تسليمك بأن أمر المؤمن كله خير إن إصابته سراء شكر. فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

وماذا كان يغنيك هذا المنصب، لو كنت قد فزت به، ثم أضرت ضررا بليغا في صحتك أو حياتك العائلية، أو في أعزائك، لا قدر الله، لقد أجزلت لك السماء من العطاء الكثير والكثير؛ مما يستوجب الشكر عليه أناء الليل وأطراف النهار، فكيف ذهلت عن كل ذلك، ولم تر من حياتك كلها سوى ذلك «الهدف» الصغير، الذي طاش سهمك إليه فلم يصبه!

يا سيدي انهض من كبوتك.. وأعن نفسك على النجاة من وحش الاكتئاب، فلقد وقعت في براثنه.. وكانت آية ذلك هي كارثة عدم اكتراثك للأشياء التي أصابتك كعرض مؤثر من أعراض الاكتئاب، وبعد أن كنت «شديد الاكتراث» بنجاحك العملي في الحياة وطموحك إلى المنصب الأعلى.. إلى الحد الذي انقلب عليك بالأثر العكسي للطموح الضاري على صاحبه، حين يواجه الفشل فيصاب بالإحباط الشديد. ويجره الإحباط إلى هاوية الاكتئاب.

وفى هذه الهاوية تفقد كل الأشياء معانيها وقيمتها وأقدارها، ويعبر المكتئب عن ذلك بالوجه الآخر للاكتراث المغالى فيه.. أي باللامبالاة بالأشياء كلها كبيرها وصغيرها.

ومع أنني ضد الطموح الضاري، الذي لا يعرف حدودا ولا تعقلاً، وقد يقود صاحبه إلى التحايل على الوصول لأهدافه بالطرق الجانبية... إلا انه في النهاية قد يكون أهون الضررين بالنسبة لكارثة عدم الاكتراث؛ لأن عدم الاكتراث معناه عند المكتئب فقدان الأشياء لاعتبارها عنده وقيمتها واهميتها، وقد يبدأ ذلك بأهداف الحياة، ثم لا يلبث أن يمتد مع مضاعفات المرض إلى عدم الاكتراث بالحياة نفسها وفقدانها للاعتبار عنده.. فيؤدي به ذلك إلى محاولة التخلص منها.

فاستعد يا سيدي اهتمامك بالأشياء فلسنا نحسب في عداد الأحياء، إلا بقدر اهتمامنا بالأشياء والأشخاص والقيم السامية والأهداف المرجوة واخرج من عزلتك، وشارك في مباراة الحياة ومنافساتها الشريفة بفهم أشمل وأعمق للحياة، مؤمنا بأن أعظم الجوائز والعطايا، إنما هي الصحة والسعادة الشخصية والعائلية وسلامة الأبناء، ونجابتهم، ورضاء النفس والضمير عن كفاح الإنسان الشريف

في الحياة، مع تعلق القلب دائما بالأمل في رحمة الله أن تتطلف به الأقدار، فلا تحمله ما لا طاقة له به.. وما لا يعوضه مال ولا منصب ولا جاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الابتسامة المتحجرة

في البداية أود أن أقول لك إنني صديق قديم لهذا الباب، ولا تلهيني مشاغل الحياة عن الاحتفاظ بأعداده السابقة، وقد تشجعت أخيرا على أن أشركك في شجوني، فأنا محاسب شاب عمري 41 سنة، نشأت في أسرة يسودها الترابط والتلاحم وتعتز بأواصر القربى.

وكان قدوتي في ذلك هو أبي، الذي كان مثالاً للعمل الصالح، والحرص على صلة القربى، وقد نشأت في كنف الطبيعة بالريف.

وبعد أن عملت واستقرت أحوالي، ارتبطت بابنة عمي، التي وجدت فيها ما لم أجده في غيرها من الجمال والتفاهم والحب والقناعة، وتزوجنا وسط فرحة الاهل، ومضت حياتنا هادئة وجميلة، يظللها الحب والتفاهم والاحترام المتبادل، وتكلل الحب والوئام بمجيء وليدتنا الأولى؛ فكانت طفلة في غاية الجمال والرقة، وبعد ثلاث سنوات أخرى، هلت علينا طفلتنا الثانية، واستقبلناها بالفرحة الطاغية، فإذا بالفرحة تنحسر.. والابتسامة تتحجر على الشفاه..

فقد جاءت طفلتنا الثانية، وبها عيوب خلقية في ذراعيها، وساقيها اللتين تكادان تلتصقان بمقعدتها، كما أنها بغير معالم واضحة للقدمين.. وخيم الحزن والاشفاق على حياتنا، وحملنا الطفلة إلى الأطباء في المنصورة وطنطا والقاهرة، واختلفت الآراء حول تقييم الحالة، وتقرير الجراحة المطلوبة.

ولم نتوصل حتى الآن إلى أول طريق للأمل، فسلمنا بإرادة الله، وحاولنا أن نؤجل الإنجاب مرة ثالثة إلى أن يتضح لنا الطريق، فحدث الحمل الثالث على غير ما خططنا له، وأشفقت زوجتي من أن يجيء المولود الجديد بهذه العيوب الخلقية، وراحت تتابع حملها عند أستاذين للطب بالمنصورة؛ لاكتشاف أي خلل في الجنين ومعالجته في الوقت المناسب، فكان الأطباء يطمئنوننا.

وكان إحساس زوجتي يرفض الاطمئنان، وتتوجس دائما من المجهول، إلى أن صدق حدسها واكتشف أحد الأطباء - وهي في شهرها الثامن - الحقيقة المفزعة، وهي أن الجنين سيأتي إلى الدنيا وحالته كحالة طفلتنا المعاقة.

وتحققت المخاوف بالفعل، وجاء وليدنا الثالث طفلاً جميلاً. يتفجر بالصحة والشقاوة، ولكنه كأخته السابقة في العيوب الخلقية، ومادت الأرض بنا، ولولا إيماننا بالله لانهرنا تماما.. ولكننا تمالكنا أنفسنا وتوقفنا عن الإنجاب نهائيا.

وكلما تذكرنا ما حل بطلفينا، اسودت الحياة في وجهينا فجاهدنا لكيلا نستسلم لأفكارنا والتمسنا الصبر والسلوى لدى خالقنا الأعظم، ولا أريد أن أطيل في هذا الموضوع، الذي يثير أشجاننا، وإنما نحمد الله على أننا مازلنا نسير على أقدامنا.

أما زوجتي فقد طبع الهم بصمته المريرة على وجهها وكثيرا ما رأيتها تبكي وحيدة، فالتمس لها العذر، وأشفق عليها مما تعانيه، وأدعو الله أن يشفي أبناءنا رحمة بهذه الزوجة الطيبة، وأود أن أوجه كلمة إلى قراء هذا الباب من المقبلين

على الزواج من أقارب لهم، وهي: ألا يقصروا في إجراء تحاليل الوراثة قبل الزواج؛ لكيلا يفاجئهم الخطر ويعانوا ما نعاني منه الآن، فأنا مازلت من مؤيدي زواج الأقارب، كلما كان ذلك ممكنا. ولكنه من الضروري إجراء الفحوص الطبية قبل الزواج لاكتشاف الأمراض الوراثية مبكرا، ومعالجتها في الوقت المناسب والاستعداد لمواجهتها.. ولقد كنت أجهل هذه التحاليل للأسف حين تزوجت، مع العلم بأنه لا توجد في أسرتنا عيوب خلقية...

ولو كنت قد أجريت هذه التحاليل قبل الزواج، وتأكدت من وجود أمراض وراثية لدينا أنا وابنة عمي، لكنت تزوجتها أيضا رغم ذلك، حتى ولو أفنيت العمر في سبيل ذلك، ولكن بشرط أن نقرر معا عدم الإنجاب، إلا إذا ظهر لنا أمل من الطب الحديث في تجنيب أبنائنا التأثر بهذه الأمراض الوراثية، وحتى لو لم يظهر لنا هذا الأمل لكنا قد رضينا بأقدارنا.. واكتفى كل منا بالآخر؛ لأن هذا هو اختيارنا الحر.

وإنني أتساءل الآن يا سيدي.. هل تستطيع استطلاع آراء أساتذة العظام والتشوهات الخلقية المتخصصين في حالة هذين الطفلين ومدى نجاح الجراحة وتكاليفها، علما بأن عمر الطفلة 6 سنوات، وعمر الطفل 18 شهرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قدر الله وكما شاء فعل يا صديقي.. غير أن هناك فارقا بالفعل بين أن يشقى الإنسان بما كان يجهله ولم يتوقعه، وبين أن يتعامل مع اختاره لنفسه بإرادته، وقبل به منذ البداية ولم يفاجأ بشيء منه. ولهذا.. فإني أضم صوتي إلى صوتك في ضرورة أن يجري المقبلون على الزواج الفحوص الطبية الضرورية، واختبارات العوامل الوراثية؛ تحسبا لما يمكن أن يحمله إليهم المستقبل من ظروف غير مواتية، واستعدادا للتعامل معها بما يقتضيه من إجراءات واختيارات.

والطب الحديث يقول لنا الآن: إن كثيرا من الأمراض والعوامل الوراثية يمكن التعامل معها بأمان، إذا تنبه لها الطرفان قبل الزواج، واتخذا الاحتياطات اللازمة لمواجهتها وتفادي آثارها.

والجينات الوراثية التي تنقل هذه العوامل إلى الأجيال التالية.. هي آية أخرى في حد ذاتها على قدرة الخالق الأعظم جل شأنه، فهي «شفرة» صغيرة ملغزة، تحمل كل خصائص الإنسان، وتنقلها أو تنقل معظمها إلى ذريته، ومن عجائبها التي لم ينجح العلم - حتى الآن - في تفسيرها أنها قد تنقل بعض هذه الخصائص إلى بعض الأبناء، دون البعض الآخر.

وقد تعفي جيلاً من الأبناء من خصائصها المرضية.. وتخص به جيلاً يليه، ولهذا فقد يفاجأ المرء بظهور بعض التشوهات الخلقية في الأبناء، على الرغم من عدم وضوحها من قبل في محيط الأسرة الظاهر للعيان.

ومن هنا تأتي أهمية إجراء الاختبارات الوراثية والفحوص الطبية قبل الزواج، حتى ولو لم يكن في الأفق ما يوحي بأي توقع لمثل هذه العيوب الخلقية، والإنسان مطالب بأن يتلمس الطريق، الذي يخطو إليه ويعرف مواقع أقدامه فيه، ليس فرارا من قضاء الله.. وإنما تلمسا لمواجهة المستقبل بما يتطلبه من احتياطات، أو تهيؤ نفسي للقبول به.. والتعايش معه.

وعلى أية حال.. فلقد حقق الطب الحديث تقدما هائلاً في علاج التشوهات الخلقية وتحجيم أضرارها، فلا تفقد الأمل أبدا يا صديقي في علاج تشوهات طفليك، أو في تحقيق الحد الأقصى المتاح لأطرافها من الاستواء الطبيعي، وتفضل بإرسال تقاريرهما الطبية وصور الأشعة الخاصة بهما إليّ؛ لكي أعرضها على بعض كبار أساتذة جراحة العظام.

وأرجو الله أن يمكنني من أن أحمل إليك قريبا ما تتلهف أنت وزوجتك الحزينة على سماعه من بشرى مطمئنة، تضيء حياتكما بشموع الأمل من جديد وتبدد من سمائها سحابات الهموم والأحزان بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رباط الـــدم

أكتب لك هذه الرسالة؛ لأرد بها على رسالة الزوج، الذي يشكو من أن زوجته تعايره بمرضه.. ولكي أروي لزوجته هذه قصتي، وأقول لها إن الزواج «عفة» وستر للزوجة، وأنها بغيره لا تقوى على مواجهة الحياة ولو كان مريضا؛ فلقد كنت أعيش مع زوجي في قمة السعادة، وتزوجنا لمدة تسع سنين سعيدة، كانت منها ثلاث سنوات اغترب عني خلالها في دولة خليجية..

وكنت أنتظر عودته كل سنة بلهفة، وأعد الأيام انتظارا لها، وكان زوجي إنسانا طيبا كله شباب وحيوية.. ولكنه رجع إلينا من الغربة للأسف مريضا بالالتهاب الكبدي والفيروسي النشيط اللعين؛ نتيجة خلع ضرس في الغربة، بغير احتياطات ضد العدوى.

وجاء زوجي فوجدته ذابلا عليلا، وقضيت فترة الأجازة معه، ننتقل بين معهد الكبد بالمنوفية، وبين أطباء القاهرة ومعامل التحاليل، وضاع شقاء الغربة في العيادات والمعامل.

وفي النهاية قرر له الأطباء العلاج بحقن الانترفيرون باهظة الثمن وكان مطلوبا له 60 حقنة مبدئيا، فنصحت زوجي بالعودة مرة أخرى إلى الغربة، لكي نستطيع شراء هذه الحقن الباهظة ورجع بالفعل ولكنه لم يعد إلينا بالشفاء كما رجوت، وإنما بمضاعفات المرض الشديدة، ولأن زوجي هو «النعمة» التي تظلل حياتنا؛ فلقد حاولت أن أحارب مرضه بكل ما أستطيع من قوة، ولم أبخل عليه بما في يدي.

فكانت لدي قطعة أرض صغيرة، بعتها بمبلغ أربعة آلاف جنيه، وكانت لدي سيارة أجرة مستهلكة وتالفة فبعتها ب- 4700 جنيه، ولم أجد الحقن المطلوبة إلا لدى شخص يعمل بعيادة أحد كبار الأطباء، ويتاجر فيها، فاشتريتها ب- 8250 جنيها، وقدمتها لزوجي الحبيب.

ومع ذلك فلقد تدهورت صحته سريعا، وبدأ الأطباء يطالبوننا بتوفير بلازما الدم له؛ فأعطيت لزوجي كيسين منها خلال 6 شهور وحل به قضاء الله ودمي يسري في عروقه، وعمره لا يتجاوز 34 عاما، وزالت عني «النعمة» التي لم أتمتع بها سوى تسع سنوات فقط، وذهب زوجي إلى لقاء ربه، وترك لي 3 أطفال صغار، ومعاشا لا يتجاوز 48 جنيها.

وعشت بلا حب ولا حنان من بعده. وخرجت إلى الحياة لأول مرة لأبيع الملابس الجاهزة بالتقسيط للموظفين في المصلحة الحكومية التي كان يعمل بها زوجي وغيرها، لكيلا أحتاج إلى أحد، ولكني أصبت للأسف بالسكر والضغط، وتوقفت عن البيع والشراء، وغرقت في الديون.

فهل لو كان زوجي معي الآن كنت قد مرضت كما حدث لي؟ وهل كنت قد عانيت كرب توفير ملابس العيد لأطفالي الصغار لكيلا يشعروا باليتم والحرمان، كما

عانيته قبل عيد الفطر الماضي؟ وهل كنت قد وجدت نفسي الآن كالغريقة في بحر المشاكل والهموم؟

إنني أدعو هذه الزوجة التي تعاير زوجها بمرضه، إلى ألا «تتبطر على النعمة»، التي أعطاها لها الله، لكيلا تزول عنها فتعرف مشاكل الحياة الحقيقية، التي لم أعرفها إلا بعد رحيل زوجي.. وأدعو لها بالهداية ولزوجها بالشفاء، كما أدعو الله أيضا أن يكرمني في أبنائي؛ وخاصة ابني الأكبر، الذي سيؤدي امتحان الشهادة الابتدائية هذا العام وأرجو لكم جميعا الصحة والسلامة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أليس من المحزن حقا ألا يقدر كثير من البشر قيمة شركائهم في الحياة، إلا حين يدهمهم القدر بحرمانهم منهم؟

لقد عرفت أنت يا سيدتي بفطرتك السليمة قيمة ما كان بين يديك، قبل أن يغيب عنك وتشبثت به، وقدمت القرابين إليه؛ حتى ليرحل زوجك عن الحياة؛ ودماؤك تسري في عروقه، ولكن المحزن حقا هو أن يتعامى الآخرون عن قيمة الموجود، حتى يفقدوه، ثم يبدأ نواحهم عليه وافتقادهم له بعد فوات الأوان.

ولقد تساءلت الطفلة في رواية «عالم صوفيا» للكاتب النرويجي يوستن جاردنر، التي ترجمها باقتدار الأستاذ أحمد لطفي: أليس من الظلم أن يموت الإنسان؟ ثم راحت تتأمل الفكرة، فما إن تقبلت فكرة الموت.. حتى شعرت أكثر من أي وقت مضى أي نعمة كبرى، تنعم بها؛ إذ تتردد فيها أنفاس الحياة!

فالحياة تحيل إلى الموت، والموت يحيل إلى الحياة، وما كنا لنشعر ذات يوم بقيمة الحياة، إن لم نفكر أيضا في أننا سنموت في يوم من الأيام، ولا نملك ونحن نفكر في الموت إلا أن يعترينا الشعور بروعة هذه المعجزة الإلهية، وهي معجزة أننا ننعم بالحياة، ولهذا فقد كانت صادقة كل الصدق، تلك الجدة العجوز؛ التي انبأها الطبيب في الرواية نفسها أنها مريضة مرض الموت، فقالت له:

_الآن فقط أدرك روعة الحياة وجمالها!

فلماذا يا سيدتي لا ندرك «روعة» الحياة إلا حين يدهمنا المرض، ولا «روعة» الأحباء إلا حين يفارقوننا، ولماذا تحتاج مثل هذه الزوجة، التي تعير زوجها بمرضه؛ لأن تروي سيدة مثلك لها تجربتك مع الحياة، بعد أن فقدت الزوج والسند والحنان؟

لقد أدركت يا سيدتي «روعة» الموجود، رغم بساطته وسعدت به.. وحاربت للدفاع عنه وحمايته من الأخطار الداهمة، إلى أن غلبتك أقدارك، فإذا كانت سعادتك مع زوجك الراحل قصيرة، فعزاؤك أنها كانت أيضا حقيقية وصادقة..

وبعض سلواك عنها في أن زوجك إنما يتواصل في أبنائه الذين ستواصلين العطاء لهم، حتى يصلوا معك إلى بر الأمان.

وإذا كانت الصحة قد خانتك وحرمتك من مواصلة الكفاح لتوفير الحياة الكريمة لأبنائك الصغار، فلم تذهب الحيلة بعد.. وهناك من الأعمال البسيطة ما تستطيعين ممارستها بلا عناء في بيتك، وبحيث تضمن لك حياة آمنة كريمة بإذن الله وأرجو أن تقرأ زوجة كاتب الرسالة الأولى - وكل زوجة أو زوج في مثل موقفها - رسالتك هذه مرارا وتكرارا، وأن تتفهم معانيها ودروسها، قبل فوات الأوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الموعد المرتقب

أنا يا سيدي شاب في الثامنة والعشرين من عمري، نشأت في أسرة متوسطة وهادئة بين أبي، الذي يعمل محاسبا بالقطاع العام، وأمي التي تعمل بالتدريس، وأختين تصغرانني، وقد عشنا حياتنا في ظل أبوينا، اللذين كانا ومازالا زوجين مثاليين ومتفاهمين، فنشأنا نحب الناس، والأهل، وتتفتح قلوبنا للآخرين بسهولة..

ورأينا دائما أمي ترحب بأهل أبي، وتحبهم وأبي يحرص على مجاملة أهل أمي باستمرار، فكنا ننتقل بين بيت جدتي لأبي وبيت جدتي لأمي وأخوالي، فلا نجد هنا وهناك سوى الحب والاعتزاز والإشادة بأبينا وأمنا.

وقد عشت طفولتي وصباي في مسكن أسرتي السابق في حي إمبابة، حيث الحياة الشعبية والزحام والبساطة وأشياء كثيرة، ثم جاءت لأبي فرصة للعمل بإحدى المؤسسات الاستثمارية بدولة عربية؛ فسافر إليها، وأنا في الخامسة عشرة من عمري، وعمل هناك ست سنوات كاملة كان يتردد علينا خلالها كل صيف لمدة شهر، ثم رجع أبي حين تخرجت واستقر في مصر، وعمل بفرع تلك المؤسسة الاستثمارية في مصر..

وتغيرت حياتنا إلى الأفضل في أشياء كثيرة، فاشترى أبي شقة لزواجي في المستقبل، ووضع لكل بنت من ابنتيه مبلغاً كافياً من المال في البنك لزواجها..

ثم رأى أن الوقت قد حان للانتقال من مسكن الحي الشعبي إلى شقة أوسع وأجمل بحي راق، فانتقلنا إلى مدنية نصر، وتباعدت المسافات بعض الشيء بيننا وبين مسكن أهل أمي، ومسكن أهل أبي في الحي نفسه الذي نشأنا فيه، ورغم سعادتنا بالعمارة الجديدة التي انتقلنا إليها ومدخلها الرخامي الأحمر الجميل والمصاعد الحديثة التي نستخدمها بديلاً للمصعد القديم المتهالك كثير الأعطال في عمارتنا السابقة، إلا أنني وشقيقتي شعرنا ببعض الوحشة، في هذا الحي الجديد، الذي يختلف كثيرا عن حينا القديم..

وشكت شقيقتاي دائما من افتقادهما لصديقات المدرسة وجاراتهما في إمبابة، وشكوت أنا أيضاً من افتقادي لأصدقاء الصبا وكرة القدم في الحي الشعبي، فكان أبي يقول لنا إن هذه هي ضريبة الانتقال من «مستوى» إلى «مستوى» أرقى، وان علينا أن نقبل بها راضين، ونتطلع لصداقات جديدة مع أبناء هذا الحي الراقي، ووجدت شقيقتاي في زميلات المدرسة الجديدة بعض التعويض.

أما أنا فكنت لا أجد نفسي إلا بين أصدقاء الحي القديم، وأزورهم كثيرا وأقضي أوقات فراغي معهم، ثم نجح أبي في تعييني بأحد البنوك الاستثمارية، وانشغلت بعملي فتباعدت زياراتي للحي القديم، حتى كادت تنقطع.. ثم كلفت ذات يوم بمهمة عمل في المركز الرئيسي للبنك بوسط المدينة، وذهبت إليه ففوجئت بفتاة جميلة ومحجبة تحييني بحرارة، ثم تقول لي حين لاحظت ارتباكي:

- ألا تعرفني يا أستاذ فلان!! أنا فلانة، أخت صديقك القديم فلان؛ وتذكرتها على الفور، وضحكت كثيرا وتعجبت لرؤياها، وقد استوت شابة جميلة، وهي التي كنت أظنها مازالت طفلة، كما رأيتها آخر مرة.

وتحدثنا عن شقيقها ووالدتها الطيبة، التي طالما أطعمتنا أشهى الأطعمة في بيتها، ووالدها التاجر البسيط، الذي تشع الطيبة من ملامح وجهه، والذي كان أبي يحبه كثيرا، ويشهد له بالأمانة وحسن السمعة. وعرفت منها أنها قد تخرجت في معهد فوق المتوسط للعلوم التجارية، وعملت بهذا البنك منذ ستة شهور.

وفى البيت رويت لأبي وأمي عن لقائي بهذه الفتاة، ونحن على مائدة العشاء، فذكرا والدها ووالدتها بالخير، وروى لنا أبي أنه في بداية زواجه حين كان الدخل شحيحاً، كان يشتري احتياجات البيت من والدها بالأجل، وكان الرجل سمحا دائما مع معه، ويصبر عليه إلى أن يؤدي إليه دينه، بغير أن يجرح مشاعره بكلمة واحدة، وقال عنه أيضا إنه تاجر شريف، ولولا كثرة أبنائه لكان قد صنع ثروة.

وتكرر لقائي بعد ذلك بهذه الفتاة في البنك، فلم ألبث أن وجدت نفسي مشدوداً إليها برباط سحري، ووجدتني أسعى من حيث لا أدري إلى إحياء صداقتي القديمة بشقيقها، وزرته بالفعل في البيت، وعرفت أنه قد حصل أيضا على شهادة فوق المتوسط، ويعمل موظفا بالقطاع العام، وأن شقيقتيه الأخريين قد تزوجتا من تاجرين صغيرين، وشقيقه الأكبر يعمل مدرسا بالوادي الجديد.

وسعد هذا الصديق القديم بظهوري مرة أخرى في حياته سعادة كبرى، وأصر على دعوتي للغداء في يوم الجمعة التالي؛ لنستعيد ذكريات زمان، ونستمتع بطعام والدته الذي لا يبارى، وحملتني أمي وأبي السلام لوالدته ووالده، ونعمت بقضاء وقت جميل ومريح - لأقصى حد - حد - في كنف هذه الأسرة الطيبة، وافتعلت بعد ذلك الأسباب، للذهاب إلى مركز البنك الرئيسي بوسط المدينة، وإلى بيت صديقي لهدف لا يخفى عليك، إلى أن انتهزت أول فرصة مناسبة وصارحت شقيقة صديقي بحبي لها، ورغبتي فيها كزوجة، وطربت غاية الطرب، حين فوجئت بها تبتسم، وتقول لي ببساطة، وبلا أي محاولة للإدعاء أو التظاهر بالمفاجأة: كنت حاقولها!

ووجدت نفسي أضحك منتشيا بردها، حتى دمعت عيناي وقلت لها: ألم يكن من الأفضل أن تتجملي، وتتظاهري بالدهشة والمفاجأة، كما تفعل البنات الأخريات؟

فإذا بها تلقي عليّ درسا آخر في الصدق مع النفس والبساطة، وتقول لي، إنه ليس لديها ما يدعوها لذلك، وهي التي كانت تدعو ربها كل يوم في صلاتها، منذ التقت بي في البنك لأول مرة أن يجعلني من «نصيبها» لأنني كذا وكذا وكذا! وكل «كذا» منها شهادة مدح واعتزاز بي وبأخلاقي وأسرتي وأبي وأمي... إلخ.

ورجعت إلى بيتي سعيداً مبتهجاً، وصارحت أبي برغبتي في الزواج، منها؛ ففوجئت به لا يتحمس للفكرة ولا يرحب بها، ويقول لي إنه لا يعترض على الفتاة لشخصها أو لأسرتها فأسرتها أسرة طيبة وشريفة ولكنه يعترض فقط على «المستوى»، الذي أرغب في التصاهر معه!.. فالفتاة ليست حاصلة على شهادة

جامعية، ووالدها - رغم طيبته وفضله - ليس طبيبا كبيرا ولا مهندسا مرموقا، ولا أستاذاً جامعيا لامعا، ولا رجل أعمال كبيرا، وإنما هو - في النهاية - تاجر على قد حاله، وليس بين شقيقاتها من تزوجت قاضيا، أو محاسبا، أو صيدلانيا... إلخ، وشقيقاها الآخران موظفان صغيران، فماذا يغريني في الارتباط بفتاة تجذبني معها «إلى المستوى» الأدنى، ولا ترفعني إلى أعلى، بعد أن تفتحت أمامنا مجالات الارتقاء الاجتماعي.. وفرص مصاهرة الأسر الكبيرة!

وصدمت في حديث أبي صدمة هائلة؛ فلقد كان يتكلم لغة جديدة علينا، ورغم ذلك.. فإنني لم أفقد الأمل فيه نهائياً؛ لأنه ليس أباً ديكتاتورا ولا قاسيا، وإنما أب عطوف ومتفاهم، ويفتح الباب دائماً لمناقشته، وأملت في أن أجد لدى أمي عونا لي عليه، وتحدثت إلى أمي في الأمر؛ ففوجئت بها تؤيد أبي في وجهة نظره، وتؤكد لي - على استحياء - أنها تريد لي كأبي فتاة أفضل من هذه الفتاة، التي لا عيب فيها سوى «مستواها» الاجتماعي، الأقل من مستوانا!

وجادلت أمي طويلاً، فلم أصل معها إلى شيء، وانتهى الجدال بأن طلبت مني التفكير في الأمر لفترة أخرى، قبل أن نرجع لمناقشته من جديد.

وبعد أسبوع زرت صديقي القديم في بيته؛ ففوجئت به يستقبلني بالعناق الحار والتهنئة بالخطبة القريبة السعيدة!

وقبل أن أفيق من ذهولي، جاءت والدته بعد لحظات، فإذا بها تزغرد زغرودة طويلة، قبل أن ترحب بي بحرارة شديدة، وتقول لي بابتهاج إنها لم تتمالك نفسها من الفرحة، فزغردت رغما عنها حين رأتني، وأدركت أن فتاتي لم تخف شيئا مما حدث بيننا، وأن الجميع يعرفون برغبتي فيها، وأسرتني بساطة هؤلاء الناس، وعدم تحفظهم في إبداء مشاعرهم وعدم تصنعهم للتمنع أو التردد أمام طلبي، وأسرني أكثر ما قالته لي الأم من أنها أيضا قد تمنتني لابنتها، حين روت لها أنها قابلتني بالصدفة في البنك لأول مرة.

وعجبت لهذا الجو المريح من الصراحة، وعدم إخفاء المشاعر أو التظاهر بعكسها، ولكني شعرت بالحرج الذي أواجهه، وأبي وأمي يرفضان ارتباطي بهذه الفتاة.. فتغلبت على حرجي، وقلت للأم: إن الانتظار لن يطول بإذن الله. وسوف أتقدم لابنتها في الوقت الذي تسمح به ظروفي وظروف أسرتي.. فقالت الأم إنها لا تطلب مني سوى شيء واحد، هو ألا أزور ابنتها في البنك، إلا بعد قراءة الفاتحة.

وإلى أن يتم ذلك فبيتها هو بيتي، وأنا «أخوها»، وهي «أختي»، وأستطيع أن أتحدث معها في صالون البيت في أي وقت أشاء! وبالفعل فلقد بدأت أزور فتاتي في بيتها بانتظام، وأجلس معها في الصالون؛ حيث يظل الباب مفتوحًا وأمها أو شقيقها يتحركان في جواري، ولا يضيقان أبدا بزياراتي، وقد صارحت فتاتي بحقيقة الموقف فأكدت تمسكها بي وصبرها إلى أن أنال موافقة أبي وأمي؛ لأنه بدونها لا يمكن أن ترتبط بي.

وقررت أن أعمل بالنصيحة، التي تنصحها للأبناء حين يواجهون هذه المشكلة، وألا أكف عن محاولة إقناع أبي وأمي باختياري مؤكداً لهما أنني لن أخرج على طاعتهما، ولكني أطالبهما بإعادة النظر في الأمر؛ لأن عدم اقتناعهما به لن يكون له عائد، سوى أن أحرم نفسي من السعادة التي أريدها، أو أن أؤجلها إلى أن تلين القلوب ولو بعد حين!

وواصلت حياتي العائلية، كما كانت من قبل، ومن حين لآخر أعود لمناقشة أبي في الموضوع، فيطلب تأجيل البت فيه بضعة أسابيع أخرى، وهكذا حتى مضت ثلاث سنوات كاملة، عرف خلالها والدا فتاتي بموقف أبي وأمي بالطبع، وتألما له كثيرا، وطلبا من ابنتها أن تقطع علاقتها بي؛ لكيلا تغريني هي بالخروج على طاعة أبي، وهو مالا يقبلان به، ولكن فتاتي تمسكت بالصبر والأمل، ورجت أبويها ألا يحرماها من مهلة أخيرة، ستقبل بعدها بأي خاطب لها إرضاء لهما!

ورجعت إلى أبي مرة أخرى، وأبلغته أن موقفي قد أصبح حرجاً للغاية مع أسرة فتاتي، التي رفضت أكثر من خطيب تقدم لها، وأمام صديقي القديم، الذي بدأ يتحدث معي عن أنني لا أرضى لأختي بمثل ما تتعرض له أخته، وبكيت وأنا أقول لأبى إنني لا أريد أن أخرج عن طاعته؛ لأنه أبي الذي يحبني وأحبه، والذي ظلّل حياتنا طوال العمر بالحب والعطف والعطاء، ولكني لا أستطيع في الوقت نفسه أن أتخلى عن حبي، ولا أريد الارتباط بأي فتاة أخرى فماذا أفعل.. وماذا يريدني أن أمضى إليه؟

وتأثر أبي بدموعي، وقال لي دامعا إنه ما دامت هذه هي رغبتي وسعادتي، فإنه يترك لي الخيار.. وكل ما يرجوه هو أن أمهله ثلاثة أسابيع فقط؛ لإنهاء بعض الشئون، قبل أن يتوجه معي لزيارة هذه الأسرة وقراءة الفاتحة..

ولم أتمالك نفسي، حين قال ذلك.. فقبلت رأسه بفرحة طاغية، وقبلني هو مهنئًا ومبتهجاً، وحددنا معا الموعد السعيد، عند غروب أحد أيام الجمعة في شهر يناير الماضي، وبشرت فتاتي بانفراج الأزمة؛ فبكت حين أبلغتها بموافقة أبي وأمي على ارتباطنا، ونهضت بانفعال، وهي تقول لي إنها تحتاج إلى إعداد فستان لائق باستقبال أسرتي عند الحضور، كأن موعد الزيارة بعد ساعات، وليس بعد ثلاثة أسابيع. واشترت بالفعل فستاناً جميلاً بمناسبة قراءة الفاتحة، وقضينا وقتاً بهيجا مع أسرتها، وهي ترتب للموعد المرتقب باهتمام شديد؛ حتى لقد سأل والد فتاتي ابنه أمامي ألا يستطيع تدبير أمر إعادة طلاء صالة الشقة على وجه السرعة خلال يومين أو ثلاثة، وأجاب صديقي القديم بالإيجاب... فتم طلاء الصالة خلال أيام، وتمت أيضا إعادة دهان باب الشقة من الخارج.. ليكون المكان لائقاً باستقبال أسرتي، كما قالوا.

وسرت في بيتنا نحن روح جديد من البهجة والسرور، وأبي يداعبني كل يوم بالكلام عن الحب والزواج، وقبل اقتراب الموعد المرتقب بعشرة أيام فقط يا سيدي، ذهبت فتاتي لزيارة شقيقتها المتزوجة في الحي نفسه للاستعانة بها في شراء بعض احتياجاتها، وانتهت مما أرادت، ثم ركبت الأتوبيس إلى المدينة، فإذا

بهذا الاتوبيس بالذات، ومن بين آلاف العربات يهوى بكل ركابه في النهر في الحادث المشئوم، الذي هز الجميع منذ بضعة شهور!

هل تصدق هذا يا سيدي! هل تصدق؟ وهل تصدق أنها من بين كل سيارات الأتوبيس التي تجري في الشوارع، لم تختر سوى هذا الأتوبيس اللعين؟ بل وإنها ركبت الاتوبيس في ذلك اليوم، وهي التي تنفق نصف مرتبها على سيارات الأجرة!

لقد قرأت لك ذات مرة كلمة، تقول فيها إن بعض أحداث الحياة الغريبة، يتردد الأدباء في أن يكتبوا مثلها في قصصهم؛ حتى لا يتهمهم أحد بالمبالغة.

فهل طرأ على بال أحد أن تكون فتاتي، التي انتظرتني ثلاث سنوات، ضحية لحدث من هذه الأحداث الغريبة، التي لا يصدقها كثيرون؟

لقد ظللت ثلاث سنوات، أعيش على أمل واحد، هو أن يترفق بي أبي ويبارك زواجي من هذه الفتاة، فهل من العدل أن تنتهي قصتنا هذه النهاية البشعة، بعد أن وافق أخيرا؟

إنني لن أصف لك حال أسرة فتاتي بعد ما جرى، أعانها الله وصبرّها على مصابها، كما أني لن أصف لك حالي حين تلقيت الخبر الصاعق ولا ما عانيته - وما زلت أعانيه - إلى الآن، حتى وصف لي الطبيب دواء منوما لأستطيع به النوم.. لن أصف لك ذلك لأنك تعرفه جيدا، كما أني لم أكتب لك طالبا كلمة مواساة وإلا كنت طلبتها منذ وقع الحادث، وإنما أريد أحدثك عن شيء غريب آخر يفسد عليّ حياتي الآن، أكثر مما فسدت ويضاعف من معاناتي، وهو أنني قد وجدت نفسي فجأة أشعر بضيق مكتوم وخانق من أبي وبضيق أخف من أمي وأتهمهما في قرارة نفسي بأنهما اللذان حرما هذه الفتاة وحرماني من السعادة التي كنا نستطيع أن ننعم بها، لو لم يكونا قد عارضا زواجي، لمدة ثلاث سنوات كاملة!

ومع أني لم أصارح أبي بشيء من ذلك ولا أمي، ولم أفعل شيئاً يترجم هذا الإحساس الغريب تجاههما، إلا أن أبي يحسه، وينظر إلى من حين لآخر بإشفاق وخوف، كأنما يريد أن يتأكد مما يشك فيه، وقد بادرني - حين علم بالخبر لأول مرة - بأن ذكرني على الفور، وهو مضطرب وحزين بأنه قد وافق على زواجي منها، ولم يعاند للنهاية كما يفعل آباء آخرون، ثم سألني باستحياء: أليس كذلك! أليس كذلك!! ورغم إعيائي وحزني الشديد، شعرت بالإشفاق عليه، وهو يكاد يستجديني كلمة تطمئنه إلى أني لا أحمل له ضغينة بسبب موقفه السابق من زواجي.

ولكنه منذ ذلك الحين يا سيدي، قام سدٌ خفي بيني وبينه، فأصبحت أجد نفسي دائما، عازفاً عن الحديث والمسامرة معه كعادتي قبل ذلك، كما أصبحت أيضا قليل الكلام مع أمي إلى حد الندرة، رغم أنها بكت طويلاً من أجلي وأجل فتاتي.

وأنا الآن أعيش حياة خالية من كل معنى، وليس فيها سوى الخواء والجفاء الصامت مع كل من حولي، وقد أصبحت ضيق الصدر باستمرار، ومكتئباً،

وصامتا، وأبي ينظر إليّ «بخوف» من حين لآخر ويكاد يقسم لي أنه لم يفعل شيئا إلا واجبه كأب يريد لابنه كل الخير.

أما أمي فهي تتودد إليّ بطريقة مبالغ فيها، وقد بات كل همها الآن هو أن تؤكد لي بطريقة غير مباشرة - في كل مناسبة - أن الأعمار بيد الله وحده سبحانه، وأنني لو كنت قد تزوجت فتاتي هذه منذ أول عام، لم يكن الأجل ليتأخر عنها لحظة واحدة، وأن كل ما كان سيتغير، هو أنني كنت سأواجه الحياة كأرمل شاب معه طفل؛ مما يصعب من أمر زواجي بعد ذلك، فما أن أسمع أي إشارة من هذا النوع، حتى أغادر البيت غاضبا.

إنني لست معترضا على قضاء الله وقدره؛ لأنني إنسان مؤمن، ولكني تعيس للغاية بفقدي لسعادتي، التي انتظرتها ثلاث سنوات، وتعيس أكثر بما طرأ على مشاعري تجاه أبي وأمي، وأشعر بالذنب والإثم تجاههما، كما أني أيضا تعيس بهذا الجفاء الصامت، الذي حل بيننا منذ شهور، وأريد أن أكسر هذا الحاجز، وأعود كما كنت ابنا بارا بأبيه وأمه وشقيقتيه، ويحبهم أشد الحب...

فماذا أفعل يا سيدي، لكي أرجع كذلك، وبماذا تنصحني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أثارت رسالتك المؤلمة هذه تأملاتي واشجاني يا صديقي. لا أريد أن ألمس الجراح التي لم تندمل بعد.. إلا أنني رغم ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسي من تأمل هذه المفارقة الغريبة من مفارقات الحياة، وهي أن تأتينا السعادة أحياناً، وقد أوشكت السفينة على مغادرة الميناء، فلا نكاد نبتهج لها حتى يفجعنا صفير الرحيل.

بل ولماذا يكون شأن بعضنا مع الحياة كشأن هذه الطفلة الصغيرة، التي نُقشت هذه العبارة على لوحة ذكراها في رواية «عالم صوفيا» للأديب النرويجي جاردنر: ماري الصغيرة.. هلّت علينا.. ضحكت لنا ثم رحلت عنا!

إنها قصة قديمة.. والزمن - كما يقول المثل البرتغالي القديم لا يرحم الأشخاص الذين لا يؤدون المهام المرجوة منهم في وقتها الملائم.

وفي مغزى هذا المثل قد تجسد التفسير الذي تبحث عنه لما تشعر به الآن من ضيق مكتوم تجاه أبويك، وعزوف عن الحديث إليها والتسامر معهما، كما كنت تفعل من قبل.

فأنت للأسف يا صديقي تلوم أبويك في أعماقك، على أنهما لم يؤديا المهام المرجوة منهما في الوقت الملائم! وتلوم نفسك - في الوقت ذاته - لأنك تنطوي لهما على هذه المشاعر السلبية، على الرغم من حسن نيتهما دائما تجاهك، وحرصهما عليك طوال الوقت، وأنت الضحية الطبيعية لهذا الصراع النفسي

داخلك، بين مشاعرك السوية الأصيلة تجاه أبويك كابن بار بهما وإحساسك الديني الحميد بالنفور من كل ما يسيء إليهما من جانبك، وبين هذه المشاعر السلبية العارضة التي تسللت إليك في غمرة ضعفك النفسي بعد المأساة، ولابد أن يثمر مثل هذا الصراع العنيف ما تشعر به الآن من ضيق واكتئاب وفتور تجاه كل شيء، وميل للصمت وكتمان المشاعر.

غير أن الحوار المنطقي الهادئ مع النفس قد يكشف للإنسان - في كثير من الأحيان - خطأ بعض أفكاره؛ فيؤدي به ذلك إلى تعديلها، وتصحيح بعض مواقفه تجاه الآخرين وتجاه الحياة.

فالإنسان حين يشتد به كربه، قد يتلفت حوله أحيانًا، يتلمس طرفا خارجيا يلقي عليه باللوم، ويحمله مسؤولية تعاسته واكتئابه.

ولأن والديك قد راوداك طويلاً على أن تتخلى عن هذه الفتاة الطيبة، ولم يسلما لك بحقك في الارتباط بها، إلا قبيل رحيلها المأساوي بوقت قصير، فلقد اتهمتهما - في عقلك الباطن - بأنهما المسؤولان، بلا جدال، عن تأخير سعادة هذه الفتاة وسعادتك معهما إلى اللحظة قبيل الأخيرة.

ولأنك انسان مؤمن بربك، وتخشى غضبه وتسلم بقضائه وقدره، فربما تكون قد فضلت أن يكون أبواك المسؤولين عن وأد هذه السعادة الموعودة قبل أن تكتمل؛ لإنكارك الديني المفهوم أن تتوجه بهذه «المسؤولية» إلى طرف آخر تجفل من لومه، وهو الأقدار الحزينة. ولهذا فظني هو أن لومك لأبويك، هو في الواقع عملية «تحويل نفسي» للمسؤولية من طرف تجفل من التفكير فيه بوازع ديني محمود، إلى طرف آخر بشري، قد يؤلمك أن تتهمه أيضا، ولكن محاذير لومه لا ترتفع بك إلى المشارف الخطيرة الأخرى التي تشفق على نفسك منها.

والحق أنه لا أباك ولا أمك.. هما المسؤولان عن حرمانك من فتاتك، ولا حرمانها هي من السعادة الموعودة، وإنما هي الأقدار المقدرة على الجميع من قبل أن يجيئوا إلى الحياة، فإذا كان أبواك قد حجبا عنك موافقتهما على ارتباطك بفتاتك في البداية.. فلقد كانت دوافعهما إلى ذلك بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معها - دوافع الحب لك والحرص على ما يريان فيه خيرك وصالحك، ودوافع الاعتزاز بك وطلب الأفضل في تصورهما لك، وكلها دوافع نبيلة حتى لو أخطأت التقدير في بعض الأحيان.

ورغم نبل الدوافع.. فلقد عدلا عن موقفهما في النهاية، وأكبرا فيك برك بهما وحرصك على ألا تخرج على طاعتهما، وتنازلا عما تصوراه اعتبارات عائلية واجتماعية مهمة بالنسبة إليها إرضاء لك وطلبا لسعادتك على النحو الذي تراه أنت.

فإذا كانت الأقدار قد ترصدت فتاتك بعد ذلك، ووأدت حلمها وحلمك في السعادة الوشيكة يا صديقي، فما ذنب أبويك في ذلك وما ذنب أي إنسان آخر فيه؟؟

لقد عقدا عزمهما في النهاية على مباركة ارتباطك بها، وأحسب أنهما كانا صادقين في ذلك، بعد أن استشعرا عمق ارتباطك بهذه الفتاة، وعمق إخلاصها لك وتمسكها بك، فلا لوم عليها إذن في قصر عمر السعادة، ولا في الأحلام الموءودة، فهو قدرك وقدر هذه الفتاة الطيبة التلقائية، الصادقة مع نفسها، المبرأة من كل لؤم أو ادعاء.

ولقد كان مقدورا لها أن تغزو أيضا قلب أبويك وشقيقتيك، لو أمهلتها الأيام أن تدخل دنيا أسرتك، كما كان الأرجح أيضا أن يستعيد والدك نفسه، ويسعد صادقا بمصاهرة ذلك التاجر الطيب، الذي كان لا يعسر عليه في اقتضاء دينه عنده في بداية زواجه.

ولقد كان المحتمل أن يحدث ذلك بالفعل، حين يرجع والدك إلى موطن الذكريات.. وأرض الكفاح مع صعوبات البداية، ويتنفس أجواءها القديمة؛ فالمعدن طيب أيضا، رغم ذلك التطلع العارض للمستوى «الأعلى» بدليل تسليمه لك برغبتك في النهاية، وتأثره بدموعك إلى حد أن يدمع لها وابتهاجه الصادق بفرحتك وبقرب تحقق الآمال، ومداعباته السعيدة لك قبيل الموعد المرتقب.

وكل ذلك لا يستطيع أب أن يفتعله، إذا كان قد استجاب لرغبة الابن رغما عنه أو لمجرد ألا يقطع خيوطه معه.

لقد تنازل الرجل صادقا عن كل تحفظاته السابقة.. وربما يكون قد استسخفها أيضا، ورأى - وهو الذي نعم بحياة زوجية مثالية مع من أحبها وأحبته - أن السعادة هي الأهم في الحياة الزوجية، خاصة وأن الفوارق الاجتماعية شبه هامشية، والجذور الاجتماعية واحدة بين الأسرتين.

أفلا يشفع له ذلك عندك في أن تعفيه أنت من كل لوم، أو لا يرق قلبك له، وهو ينظر إليك «بخوف» مشفقا عليك، وعلى نفسه من مظنة لومه على مالا حيلة له، أو لأحد غيره فيه، إنه أب عطوف وبار بك يا صديقي، كما أنت بار به؛ حتى ولو كان قد استغرق وقتا أطول من المطلوب، قبل أن يسلم لك برغبتك في هذه الفتاة، فلا تضاعف من تعاستك الأساسية بمعاناة التمزق بين مشاعرك كابن بار بأبيه وأسرته، وبين مشاعر الحنق المكتوم عليه وعلى والدتك، بوهم مسؤوليتهما عن قصر عمر السعادة التي أتيحت لك ولفتاتك.

ولا تكتم هذه المشاعر السلبية في صدرك، متصورا أن إنكارها بدافع الخجل منها كفيل بالقضاء عليها بعد حين، فلا إنكارها ولا كتمانها سوف يقضيان عليها، وإنما سوف يعمقانها ويرسبانها في عقلك الباطن، فتنعكس على سلوكك من حيث، لا تدري وعلى حياتك.

بل لعلي أنصحك - بلا حرج - أن تناقش هذه المشاعر نفسها مع من أبيك وأمك بغير تعارض بين احترامك وحبك لهما، وبين ذلك.. فلسوف تتخلص من كثير من بخارك المكتوم، حين تعترف لأبيك بأنك قد «ظننت» في غمار أحزانك على فتاتك، أنه «ربما يكون» المسؤول هو ووالدتك عما تعانيه الآن من حسرة؛ لعدم الارتباط

بهذه الفتاة قبل رحيلها بعام أو عامين، ولعدم إسعادك لها قبل الرحيل، فيشرح لك والداك نفسيهما بصدق ويتقبلان مصارحتك لهما بقبول حسن؛ لأنها خطوة صحية على طريق العلاقة السليمة بين الطرفين، بدلاً من انطوائك على مثل هذه المشاعر المؤلمة تجاههما، وسعيهما الحائر لإبراء ذمتهما أمامك بطريق غير مباشر.

والمكاشفة في النهاية هي طريق التفاهم والاعتراف بالأخطاء السابقة، وتعديل الأفكار والمواقف، على عكس الكتمان الذي يفيد دائما موقف الإدانة المسبقة بغير منح الطرف «المدان» حق الدفاع المشروع عن نفسه.

ولقد يخفف عنك أيضا بعض أحزانك أن تعلم أن فتاتك الطيبة قد لقيت وجه ربها، وهي سعيدة بقرب تحقق آمالها فيمن أحبته وتمنته لنفسها منذ اللقاء الأول.. ولرب أيام قليلة من السعادة الحقيقية الخالية من الكدر، أفضل كثيرا من عمر طويل من التعاسة والشقاء والحرمان، ففكر دائما في فتاتك على أنها قد رحلت عن الحياة، وقلبها سعيد ومبتهج بقرب تحقق الآمال.. ففي ذلك بعض العزاء... نعم في ذلك بعض العزاء.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النقطة البيضاء

أنا إنسان عمري 29 عاماً، نشأت في بيت ريفي، تقيم به عائلة كبيرة العدد، تضم أبي وأمي، وخمسة من الأخوة أصغر مني، بالإضافة إلى أعمامي الثلاثة وزوجاتهم وأولادهم!، فكان البيت دائماً كمعسكر الجيش، نتسابق نحن الأطفال فيه إلى مكان الطعام، فمن يسبق يجد لنفسه مكاناً حول صينية الطعام الكبيرة، ومن يتأخر لا يجد لنفسه، موطئ قدم حولها، وعليه أن يكون من السابقين في المرة القادمة.

وكان «القانون» السائد في أسرتي الريفية هذه هو أن يذهب الصغار إلى المدرسة الابتدائية، وأن يعملوا في الوقت نفسه عملا يشق على الرجال في الأرض؛ فإذا نجح الصغير في المدرسة مع ما يقوم به من أعمال شاقة، انتقل إلى السنة التالية، أما إذا رسب فلا نقض ولا إبرام، ولا مفر من خروجه من المدرسة، وتفرغه للعمل في الأرض لأنه خائب.

ونظراً لأنني قد نشأت، وأنا أسمع الكبار يرددون هذا المنطق الغريب كل يوم، فلقد نقش في أعماقي منذ الصغر، وحاولت جاهداً ألا أتوقف - تحت أية ظروف - عن الدراسة، وكنت أخرج من المدرسة، وأرجع للبيت وأذهب إلى الأرض.. فينقضي النهار في العمل دون أداء الواجب الدراسي، أو أختبئ في بعض الأحيان لأؤدي الواجب المدرسي، قبل أن أرجع للبيت، وأتعرض للعقاب والحرمان من الطعام، وتحملت العقاب صابراً، وواصلت التعليم بإصرار غريب؛ حتى ظهرت نتيجة امتحان الشهادة الابتدائية، فإذا بي الأول على المدرسة.

وعند ذلك فقط بدأت نظرة الأسرة لي تتغير بعض الشيء، وتركتني أسرتي ألتحق بالمدرسة الإعدادية بالمدينة المجاورة، وتم تخفيف الأعمال الزراعية عني بعض الشيء، وكان أبي الموظف الصغير، يرجع من وظيفته إلى الحقل مباشرة فيعمل فيه عملاً مضاعفاً؛ حتى يعفيني أنا منه، لأن قانون الأسرة هو أن يعمل كل من في البيت في الأرض، ومن لا يعمل لا يأكل، وكذلك كانت تفعل أمي؛ لتساعد على إعفائي من نصيبي من العمل والتفرغ للدراسة؛ حتى حصلت على الشهادة الإعدادية، وكنت من العشرة الأوائل في مدرستي.

وبدأت الأسرة «تعترف» بتفوقي لأول مرة، ولا تعترض على عدم إسهامي في الأعمال الزراعية.

وفى المدرسة الثانوية، مات أبي الطيب يرحمه الله في حادث بشع وحرمت من الأب الذي لم يضربني مرة واحدة في حياته، وكان يعمل في الأرض بدلاً مني، وبعد رحيله عنا بعام واحد، لحقت به أمي الطيبة، وتجرعت الكأس المريرة مرة ثانية، وأنا أستعد لامتحان الثانوية العامة بعد شهر واحد، وتزلزلت بي الأرض، وخيل إلى أنني نسيت كل ما استذكرته من قبل، وكدت أحجم عن دخول الامتحان، إلا أنني تمالكت نفسي في النهاية، وتذكرت مسؤوليتي عن إخوتي وأخواتي الذين

اعتبرت نفسي أبا لهم بعد وفاة أبوينا، ودخلت الامتحان، ونجحت بمجموع أهلني للالتحاق بكلية الهندسة.

وتخرجت بعد 5 سنوات، ولم أوفق في العمل معيدا بالكلية نفسها كما كنت أرجو لنفسي، وسافرت بعد التخرج للعمل في دولة عربية، وكنت من قبل بداية دراستي الجامعية أحب فتاة من أبناء بلدتي حباً صامتاً، لم أفصح عنه لاعتقادي أن ظروفي وظروف إخوتي بعد رحيل أبوينا، لا تسمح لي برفاهية الحب والتطلع للارتباط.

وخلال عامي الثاني في العمل والغربة، علمت فجأة أن هذه الفتاة قد تم عقد قرانها بين يوم وليلة وأنها ستزف إلى عريسها خلال شهور، ولم، أحزن كثيراً عليها؛ لأنني قد تعودت على أن تحرمني الحياة من كل شيء أحببته، فضلاً عن أنني لم أكن أعرف: هل كانت تبادلني الحب الصامت، أم لا تشعر بي.

ثم رجعت إلى مصر في الإجازة التالية، وذهبت إلى كليتي لأزور أحد أصدقائي المعيدين، فإذا بي ألتقي بها بالمصادفة، وإذا بها تصارحني بأنها قد أحبتني طوال السنوات الماضية، وانتظرتني طويلاً، حتى يئست مني، وأنها على استعداد لأن تحصل على الطلاق قبل الزفاف وترتبط بي.

فمادت بي الأرض وتعجبت لماذا تعاندني الحياة على هذا النحو ولماذا لم تسمح لي الظروف بأن أعرف أنها تبادلني الحب، إلا بعد عقد قرانها.. وكيف أسوغ لنفسي أن أشجعها على فك ارتباطها بمن ارتبطت به، وأنا الإنسان المتدين الذي يكره أن يسرق ما ليس له، وسألتني الفتاة عما سأفعل معها؛ فطلبت منها أن تترك الأمور للمقادير، مؤكداً لها أنه لو كان مقدوراً لنا أن يجتمع شملنا في حياة واحدة، فلسوف يجمعنا الله، إذا أراد لنا ذلك ولو في يوم زفافها.

ورجعت إلى عملي وبعد أسابيع أخرى علمت بزواجها بمن ارتبطت به، فبكيتها ليل نهار ثلاثة شهور متواصلة، وحاولت أن أتناساها وأن أبدأ مشروع خطبة تقليدية، حين أرجع في الإجازة وأقدمت على ذلك بالفعل أكثر من مرة طوال ثلاث سنوات بعد زواج فتاتي التي لم أرها بعد ذلك أبداً، ففشلت كل محاولاتي، ووجدت نفسي لا أشعر بأي ميل تجاه أية فتاة رشحها لي الأهل والأصدقاء.

والآن هناك فتاة أعرف أنها تحبني في صمت منذ سنوات، كما أحببت أنا فتاتي في صمت بضع سنوات، ولست أحب هذه الفتاة، ولكني لا أكرهها أيضاً.. فهل أتزوجها استمراراً لإيماني بأن الحياة لا تعطيني أبداً ما أريده وإنما ما تريده هي.. أم أبدأ مشروع خطبة تقليدية أخرى، حين أعود إلى بلدي في الإجازة، وسنوات العمر تجري، ومجتمع الغربة لا يتيح لي الالتقاء بفتيات، لكي أرتبط بواحدة منهن على أساس عاطفي.. وأخيراً أريد أن أسألك: لماذا تقسو علينا الحياة هكذا؛ فتحرمنا مما يريده القلب دائما؟ وهل رأيت من قبل «لوحة حياة» سوداء كمثل لوحتي هذه على مدار 29 عاما، بلا أية نقطة بيضاء في سوادها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أما وإنني قد «رأيت» من قبل «لوحات حياة» مثل لوحتك، أو أشد جهامة منها... فلقد رأيت ولمست وشهدت من هذه اللوحات، ما تعتبر لوحتك هذه بالقياس إليها لوحة فضية اللون، وليست سوداء كما تظن.

وأما أن لوحتك تخلو من كل نقطة بيضاء فهذا أمر غير صحيح، وتفسيره المنطقي المفهوم هو ميل الإنسان الغريزي للرثاء لنفسه.. وارتياحه «الاكتئابي» الغريب؛ لأن يعتبر نفسه أحياناً «أتعس إنسان في الوجود» كما يتردد كثيراً على ألسنة البعض، وكأنهم قد اطلعوا على أحوال 5 مليارات من البشر، يعيشون على سطح الكرة الأرضية، و «درسوا» حياتهم، وخرجوا بهذه النتيجة المنطقية العجيبة!

ومن يا صديقي الشاب إن كنت قد جاهدت جهاد الأبطال؛ لكي تواصل تعليمك في بيئة لا تشجع على استمرار التعليم، وفقدت أبويك الطيبين خلال رحلة الحياة وآلامها، فلقد حفلت «لوحتك» إلى جانب هذه الظروف المؤلمة بالكثير من النقط البيضاء والمضيئة، أولاها هي قصة هذا الكفاح نفسه من أجل التعليم وسط أصعب الظروف، وعطف أبويك عليك، وتشجيعهما لك على مواصلة التفوق والتعليم، ولو أديا هما عنك نصيبك من العمل الشاق في الأرض، ونجاحك في النهاية في الالتحاق بكلية مرموقة هي كلية الهندسة، وتخرجك فيها، وعملك كمهندس بدولة عربية، ونجاحك في هذا العمل واستمرارك فيه حتى الآن.. فضلا عن «التاج الذهبي»، الذي لا يراه على رؤوس الأصحاء إلا المرضى والمبتلون، أفليست هذه كلها نقاطاً بيضاء لامعة في اللوحة، التي تظنها سوداء قائمة!

ثم ماذا عن الحب الذي حرمت منه؛ لأن الحياة قد «اعتادت» ألا تعطيك ما يهفو إليه قلبك، كما تقول! ومن كان المسؤول عن ضياع هذا الحب من بين يديك، وقد كان في مقدورك الفوز به والدفاع عنه، لو كنت قد أقدمت على خطوة إيجابية واحدة في الطريق إليه؟ إن فتاتك التي أحببتها في «صمت» بضع سنوات، لم ترتبط بغيرك إلا بعد عامين من تخرجك أنت وعملك بالخارج، فماذا أعاقك عن الإقدام على الارتباط بها خلال هذه الفترة؟ ولماذا ننتظر نحن دائماً حتى ينبهنا الآخرون إلى قيمة ما كان معروضاً أمامنا، ولم نتلهف للفوز به، إلا بعد أن خطا نحوه غيرنا؟

إنك لم تحزن على هذه الفتاة، حين علمت بزواجها وأنت في الغربة، كما تقول، ولكن الأقدار هيأت لك أن تلتقي بها ذات يوم، وأن تعرف رغبتها فيك؛ فماذا فعلت حين علمت بذلك؟ وماذا كنت تنتظر من هذه الفتاة أن تفعل، وقد طالبتها أنت بأن تدع الأمور تجري في أعنتها وقد يجمعكما الله إذا قدر لكل منكما أن يلتقي بالآخر في حياة مشتركة؟

إن ارتباط شخصين بعاطفة قوية ورغبة كل منها الصادقة في الآخر، مبرر كاف لأن يسعى كل منهما لأن يزيل العقبات التي تحول دون اجتماع شملهما، فإذا كنت قد رأيت شبهة حرمة دينية في ذلك - استنادا إلى الحديث الشريف، الذي ينهانا

عن أن يخطب المرء «على خطبة أخيه حتى يذر» أي يدع خطيبته بإرادته هو - فإن الوضع هنا مختلف.. لأن المقصود بالحديث الشريف - في تقديري - هو ألا تنافس أخاك على طلب يد فتاة سبقك آخر إلى خطبتها، وليس يدفعك إلى طلبها سوى ما دفعه هو إليها، وهو الطموح إلى مصاهرة أبيها وأسرتها.. وليس لكل منكما رغبة خاصة فيها لشخصها وحده أو سابق ارتباط بها، فتفسد عليه الأمر بتقدمك بطلب يدها، وهي مخطوبة إليه، أو وهو قد طلب يدها، ولم يتلق بعد جواباً شافياً.

ولقد كان الناس يتصاهرون بالأحساب والأنساب، فكلا الخطيبين سواء بالنسبة للفتاة المرغوبة، ولا رأى شخصي لها في أحدهما أو كليها، والتفاضل بين المتقدمين إليها يكون بالأنساب والأحساب والمال، وظهور الخطيب الآخر هنا يفسد الأمر بالفعل على أخيه، الذي سبقه إلى التقدم لخطبتها، ويضعه موضع المقارنة معه، وهذا هو المنهي عنه.

أما أن تكون الفتاة راغبة فيك وأنت راغب فيها، وتعرض عليك فك ارتباطها بمن ارتبطت به؛ لأنها تحبك أنت ولا تحبه. فإن الحديث الشريف الآخر الذي يقول «لم نر للمتحابين مثل النكاح» هو الأصح بالاتباع هنا، لأنه يصحح الأوضاع، ويعفي ذلك «الآخر» من أن يتجرع تعاسة الارتباط بمن لا تحبه هو وتحب غيره، كما أنك لم تكن في كل الأحوال - لتتقدم إلى هذه الفتاة، إلا بعد أن تحل هي مشكلتها مع من ارتبطت به، ولم تكن خسائره لتصبح كثيرة في مثل هذه الحالة، وهو لم تجمع بينه وبينها حياة مشتركة، ولم ينجب منها أطفالاً تطالبها حقوقهم عليها، بأن تذر هي كل حديث عن مثل هذه الأمور العاطفية، بعد أن ارتبطت بأبيهم، وجاءت بهم للحياة..

فأين عناد الحياة لك وإصرارها على أن تحرمك من كل ما أردت؟ إنني أطالبك بأن تهون الأمر على نفسك؛ لأن أغلب ظني هو أن هذه الفتاة لم تكن تحبك في صمت طوال السنوات الماضية به وإنما كانت «تأمل» فيك فقط؛ خاصة بعد تحسن أحوالك الاجتماعية والمادية، وفارق كبير بين الحب القوى الحقيقي وبين «الأمل» السلبي الكامن. الذي لا يعبر عن نفسه، إلا في لقاء تم بالمصادفة، وكان من الممكن ألا يتم، وألا تعرف أنت حتى به.

ولو كان ما تحمله لك هذه الفتاة هو الحب الحقيقي، وليس مجرد الأمل الوردي في شاب مقبول وظروفه أفضل ممن ارتبطت به على الأقل من ناحية القبول النفسي به، لما اكتفت منك بهذا الوعد القدري الغامضة. ولتمسكت بك وكافحت للفوز بك، وحثتك على وعدها بالتقدم إليها.. بل ولأقدمت حتى بغير أن تحصل منك على هذا الوعد على فك ارتباطها بالآخر، لتغريك بالتقدم إليها لتغريك بالتقدم إليها.. أو لتشعرك بمسؤوليتك الأدبية غير المباشرة عن هذا التطور في حياتها.

وهي لم تفعل ذلك على أية حال.. ولا يدري أحد - حتى أنت - هل كنت سترغب فيها حينذاك، أم ستجد لنفسك من المبررات ما يصرف رغبتك عنها.

فهل تتوقف الحياة؛ لأنك لم ترتبط بهذه الفتاة، التي لم تتخذ أنت خطوة إيجابية واحدة للفوز بها دون غيرها؟

إن الحياة لا تتوقف في كل الظروف، ومياه النهر لا ترجع إلى منابعه أبداً، وإنما تواصل سيرها الحتمي إلى المصب، ولو كانت النفس تحظى بنيل كل ما تهفو إليه، لما كانت الدنيا دنيا، ولما كانت جنان النعيم وعدا إلهيًا للسعداء والموعودين، فتخلص من هذه النغمة الاكتئابية، وارض عن نفسك وعن حياتك وعن كفاحك البطولي للتفوق والدراسة والعمل، وتطلع بقلب يخفق بالأمل إلى من حولك، ولسوف تجد كثيرات بينهن يسعدن بك

ولو أنك قد خيرت في النهاية إذا لم يخفق قلبك لفتاة بعينها، بين الارتباط بمن تحبك هي الأخرى في «صمت»، وبين التقدم إلى فتاة لا تعرفها ولا تعرفك، وليس لأحدكما عند الآخر أي رصيد عاطفي سابق، وقد تنمو مشاعر الحب بينكما في المستقبل، وقد تموت بذوره في جوف الأرض، لنصحتك على الفور بأن ترتبط بمن تحبك - منذ سنوات حتى ولو كانت مشاعرك حيادية تجاهها حتى الآن، لأنك «الفائز» في كلا الحالين يا صديقي سواء نبتت بذور حبها في قلبك بعد الارتباط، أم لم تنبت، ولأن هذا هو الارتباط الأقل تعرضاً للفشل من غيره، لأن المرأة إذا كانت هي الطرف المحب في علاقة الزواج، أو الطرف الذي يحب أكثر.. فلسوف تصنع المستحيل لكي ينجح زواجها، وتحميه من كل العواصف والأنواء، حتى ولو لم يكن زوجها يحمل لها القدر نفسه من الحب، أو حتى لو استمرت مشاعره «عائلية» متحفظة تجاهها للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

السلك المشدود

أكتب رسالتي هذه لأقول لك إنني سيدة رحل زوجي عن الحياة فجأة منذ سبع سنوات، إثر حادث سيارة تعرض له أثناء عودته إلى البيت، فواجهت تجهم الحياة، كأرملة لها ثلاث بنات على مشارف الزواج، وابن في عامه الأخير بالمدرسة الصناعية المتوسطة.

وبعد رحيل زوجي بأسابيع، حصل ابني على شهادته وشاركني تحمل أعباء الحياة؛ فعمل في إحدى الشركات صباحا.. وعمل كضابط أمن ليلا؟ ليساعدني في تدبير نفقات زواج شقيقاته، وكلما عرضت عليه أن أعمل بإحدى المدارس القريبة كدادة أو عاملة نظافة؛ لأخفف عنه بعض مسؤولياته، كان يرفض ذلك بشدة، لأنه رجل البيت من بعد أبيه، ولا يقبل أن أتعرض للبهدلة في مثل سني.

وهكذا... واصل ابني كفاحه وعمله الشاق ليلا ونهارا، حتى تزوجت البنات واحدة وراء الأخرى.

وكلما وفقنا الله في زواج إحداهن، شعرت وشعر معي بأن حجرا ثقيلاً قد ارتفع عن صدرينا.. ودعونا الله أن يعيننا على رفع بقية أحجار المسؤولية الثقيلة.. إلى أن تم زواج البنات، وتنفسنا معا الصعداء..

وبدأنا نلتقط أنفاسنا ونستريح، فاذا بالقدر يختطف إحدى بناتي - وهي في ريعان شبابها - فترحل عن الحياة فجأة تاركة وراءها ثلاثة أطفال حيارى.. وإذا بزوجها يأتينا بعد قليل؛ ليبلغنا أنه سوف يتزوج من أجنبية ويسافر إلى بلدها، ولن يستطيع اصطحاب أطفاله معه، زوجته الأجنبية لن تستطيع تربيتهم وفقا لعادتنا وتقاليدنا.

لأن ولم يكن أمامنا إلا أن نقبل الأمر الواقع، ونضم هؤلاء الأطفال الأيتام إلى أسرتنا؛ لأنهم دمنا ولحمنا، ورجعت أحجار المسؤولية الثقيلة تجثم فوق صدورنا من جديد مع الأحزان والآلام، وقبل أن نألف هذه الأوضاع الجديدة إذا بنا نفاجأ بابنتي الثانية تأتي إلينا مطلقة، ومعها طفلتها الصغيرة، فأصبح بيتنا يضم أطفال ابنتي الراحلة وطفلة ابنتي المطلقة التعيسة، وأمَّا شهدت في سبع سنوات فقط من ترملها من الأحداث، مالم تشهده في كل سنوات حياتها السابقة، وابنا يواجه أقداره بصبر، ويكافح في الحياة ليتحمل مسؤولياته، ولم يضق بوجود أخته المطلقة وطفلتها.. ولا بوجود الأطفال الثلاثة.

أما ابنتي المطلقة فهي تحنو على أطفال أختها الراحلة، وتساعدني في تربيتهم.. ثم سافر ابني في مهمة عمل إلى الإسكندرية ذات يوم، فبحث عن عنوان شقيقتي، التي تزوجت هناك منذ عشرين سنة، وانقطعت الصلات بيننا تقريبا طوال هذه الفترة، وزارها وقوبل منها ومن أسرتها بالحفاوة والترحيب، فتجددت الصلة بيننا مرة أخرى، وأصبحت دائمة.

ثم جاءني ذات يوم وأبلغني أنه يرغب في أن يتزوج ابنة أختي هذه ورحبت برغبته، وتمنيت له الخير والسعادة من كل قلبي، بعد ما عانى معي من أعباء الحياة طوال السنوات الماضية، وتمت الخطبة بالفعل، واستطعت خلال فترة الخطبة، أن أجد له بتوفيق من الله شقة مناسبة قريبة مني، واستطاع هو تأثيثها وتدبير تكاليف الزواج.

وتم الزواج منذ حوالي ستة شهور، وسعدنا بسعادة هذا الابن المضحي الطيب، الذي تتمثل فيه الرجولة بكل معانيها، فإذا بزوجته، ابنة شقيقتي، ترفض منذ الأيام الأولى لزواجها أن تزورني في البيت، بدعوى أنها لا ترغب في ذلك، لكيلا تتجشم عناء خدمتنا نحن والأطفال الثلاثة، مع أننا لم نكلفها بشيء من ذلك، ولم ننتظره منها، وترفض أيضا السماح لابني بزيارتنا، فلا يستجيب لها ويزورنا بمفرده.

ونشأت للأسف بيني وبين ابنة شقيقتي عداوة، لا أعرف لها سببا، ولم أسع إليها، ولم يمض وقت طويل حتى هجرت بيتها ورجعت إلى أمها ورفضت العودة لزوجها مرة أخرى، وحددت شروطها في أمرين لا ثالث لها، هما: إما أن يوفر لها شقة في الإسكندرية بجانب أمها وينقل حياته إلى هناك وإما أن يطلقها ويرسل إليها نفقتها الشهرية ومنقولاتها، وإلا لجأت إلى المحاكم.

إن زوجة ابني يا سيدي حامل، وقد علمنا أنها التحقت بوظيفة بالإسكندرية، وإبني حائر، لا يريد أن يفقد زوجته بعد أن تحمل ما تحمل، لكي ينشئ بيت الزوجية، ولا يريد من ناحية أخرى أن يتخلى عني ولا عن أخته المطلقة وأبناء أخته الراحلة.

وإنني أكتب إليك لكي ترقق قلب زوجته هذه، وتناشدها العودة إليه؛ لأن قلبه متعلق بها، ولا يرغب في طلاقها، ولا يتحمل في الوقت نفسه فراقنا، وإنني أعد زوجته، وأقسم لها أمامك أنني لن أتردد عليها في بيت الزوجية، بعد رجوعها إليه، ولن أكون سببا في أية مشكلة لها، لا أنا ولا ابنتي المطلقة، ولا أحفادي الأيتام، بل إنني لن أطالب ابني حتى بأن يزورني إرضاء لها، ويكفيني أن أشعر أنه بخير وقريب مني وإلى جواري، حتى ولو لم أره.

ويكفيني يا ابنتي من فقدت من زوج راحل وإبنة رحلت في ريعان الشباب، فضلا عن ظروفنا المؤلمة الأخرى، ووجود ثلاثة أبناء يتامى، تركهم والدهم؛ ليتولاهم الله برعايته من بعده، وإبنة مطلقة ومعها طفلتها.

إنني أرجوك أن تناشدها باسمي العودة إلى زوجها وبيتها، خاصة وأنها حامل، ولسوف يزيد من حسرتي أن ينشأ حفيدي بين أبوين منفصلين: الأب في القاهرة والأم في الإسكندرية.. فقل لها يا سيدي على لساني: عودي يا زوجة ابني، واعتبرينا أنا وابنتي المطلقة وأحفادي اليتامى في حكم الأموات بالنسبة لك.. ولا تحرمي ابني هذا من أول نسمة راحة وسعادة في حياته منذ رحيل والده.. وشكرا لك يا سيدي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أحد «أحوال» الحب أن «يستذل» الإنسان نفسه للغير؛ طلبا لسعادة من يحب. ولا شك يا سيدتي في أنك تحبين ابنك الشهم هذا أعمق الحب، وتطلبين له السعادة، ولو على حساب كرامتك وحرمانك منه ومن حقوقك كأم عليه، كأنما تريدين بذلك أن تبادليه تضحية بتضحية وإنكارا للذات بإنكار أشد..

غير أني أتساءل أيستحيل حقا أن ينعم مثل هذا الشاب الطيب بالسعادة في حياته الخاصة مع زوجته، بغير أن تقدمي لها هذا القربان المؤلم؟.. ولماذا تصبح المسؤولية العائلية والإنسانية التي تضعها الأقدار أحيانا على كاهل مثل هذا الشاب «نقيصة» من نقائصه التي لا تغتفر عند مثل هذه الزوجة الشابة، بدلاً من أن يكون نهوضه بها دليلاً على رجولته وأصالة أخلاقياته ونبله مع ذويه وأولهم زوجته؟

إننى أعرف أن بعض الزوجات الشابات يضقن حتى الموت بمثل هذه الأعباء العائلية والإنسانية؛ خشية أن تستغرق طاقة الزوج النفسية والمادية، فلا يبقى لديه ما يقدمه لزوجته من اهتمام وعطاء، ويعتبرن مجرد الاهتمام الإنساني من جانبه بمشاكل حياة الأم والإخوة، خصما من عطاء، كان ينبغي لها أن تستأثر به وحدها، دون الجميع.

ولكن القضية ليست بهذا التعقيد، الذي يستحيل معه أن يوفق هذا الزوج بين مسؤولياته العائلية، وبين واجباته والتزاماته تجاه زوجته وأسرته الصغيرة، ففي قدرة الإنسان أن يفي للطرفين بالتزاماته تجاههما، بغير أن يجور على حقوق أحدهما عليه، أو يميل بشقه ناحيته، والمشكلة ليست في القدرة على التوفيق بين الإهتمامين بالأساس، وإنما في هذه «النظرة العدائية» الغريبة المتبادلة غالبا بين الطرفين، كل منها تجاه الآخر، وكأنه منافس شرس له في اهتمام الزوج وعطائه، ولن يأمن لحياته وغده إلا إذا استطاع أن يستأثر به وحده، دون الطرف الآخر وهي نظرة لا تخلو في بعض جوانبها من تأثير الغيرة الأنثوية الغريزية المتبادلة في معظم الاحيان بين الأم وزوجة الابن؛ خاصة في مثل هذه الظروف، التي تعتمد فيها الأم اعتمادا أساسيا على ابنها بعد رحيل زوجها عن الحياة، ولا تخلو أيضا من تأثير حب التملك الغريزي لدى الطرفين في أحيان كثيرة.

مع أن العدل كفيل بحل كل المشاكل المستعصية، والاعتدال أيضا حتى في الفضائل مطلوب ومرغوب دائما لتيسير الحياة وتجنب العثرات والعقبات، وبشيء من الفهم وسعة الأفق تستطيع مثل هذه الزوجة الشابة، التي لم تحتمل «غربتها» عن أمها وأهلها، أكثر من ستة شهور، أن تعتبر أداء زوجها لالتزاماته الإنسانية تجاه أمه وأخته المطلقة وأطفال شقيقته اليتامى، مع حبه لها وحرصه عليها، مؤشرا صادقا، لفضائل زوجها وأمانته وأصالة معدنه وقيمه الأخلاقية؛ إذ هل كان يرضيها حقا أن تعاشر «نذلاً» يتخلى عن أمه وأخته المطلقة والأطفال الحيارى لغير ما سبب، سوى أن يتفرغ لها وحدها بجماع قلبه وعقله. وفكره؟.. وهل تأمن

حقا لمثل هذا النوع من الرجال، وتضمن ألا يظلمها، وألا يتخلى عنها، إذا اختبرتها الحياة بعض اختباراتها القاسية؟

لقد تعجلت هذه الزوجة الشابة تفجير المشكلة، ولما يمضي على زواجها سوى ستة شهور، وقد يكون لبعدها عن أسرتها، التي لم تبتعد عنها من قبل، ولصعوبات العام الأول من الزواج المألوفة أثر في عدم صمودها للتجربة، وعدم محاولتها التواؤم مع الأوضاع الجديدة في حياتها، كما قد يكون لنقص خبرة ابنك بالحياة، وبنفسية المرأة بعض الأثر أيضا في عجزه عن احتواء المشكلة، وعن التوفيق بين واجبه تجاهكم، وواجبه تجاه زوجته في البداية.

لكن ألم يكن من المستطاع أن تمهله زوجته بعض الوقت؛ ليكتسب مثل هذه «الخبرة» الثمينة اللازمة؛ للمشي على السلك المشدود بين أسرته وزوجته، بغير أن يغضب أحدهما أو يقصر في واجباته تجاهه؟.

لقد كانت مسألة وقت و «خبرة» لا سبيل لاكتسابها غالبا إلا بالممارسة، وإلا بالتجربة والخطأ.. كما أنها «محنة» يواجهها شباب كثيرون، كهذا الشاب الحائر، فتكسبهم الحياة رغما عنهم «مهارة» السير فوق هذا السلك الرفيع، بغير السقوط منه إلى هاوية التعاسة وإغضاب أحد الطرفين، ولكن زوجته الشابة تعجلت الأمور، ولم تمهله الوقت الكافي؛ لكي ينجح في إقناع زوجته بأنها في بؤرة اهتمامه الأولى، وبأنه لا تعارض بين ذلك وبين واجباته الإنسانية الأخرى تجاه أمه وأخته والأطفال الحيارى، فلماذا لم تترفق به هذه الزوجة الشابة.. ولماذا لم تعنه على تحمل أقداره بدلاً من أن تعين أقداره عليه؟!

إنني يا سيدتي لن أناشدها العودة إلى زوجها، على أساس اعتباركم أنتم أسرة هذا الشاب الطيب في «حكم الأموات»، كما تقولين في عبارتك المؤلمة، وإنما سوف أطالبها بأن تراجع نفسها وضميرها فيما فعلت، وفي هذا الاختيار اللاإنساني، الذي تضع زوجها أمامه بينها وبين أمه وأخته وأطفال أسرته الحائرين.

ولسوف أطلب منها أن تترفق بمن اختبرتهم الحياة اختباراتها المؤلمة وأن تتفهم ظروفهم واحتياجاتهم الإنسانية لدى زوجها، وهي لا تتعارض أبدا مع وفائه لها بكل حقوقها عليه خاصة، وإنما لا تنكر عليه، كما فهمت من رسالتك شيئا آخر سوى ذلك بدليل استعدادها لاستئناف الحياة الزوجية معه، بشرط انتقاله للعيش معها بالإسكندرية.

ولسوف أذكرها بما نشرته في هذا المكان منذ أقل من عامين للزوجة، التي كتبت إليّ لتروي أن شقيقة زوجها قد ترملت وواجهت الحياة مع أطفالها الأيتام، فكان أول ما فعلت هذه الزوجة، هو أن ضاقت باهتمام زوجها بها، وبمشاكل أبنائها بعد رحيل أبيهم، فأنكرت عليه ذلك، وافتعلت المشاكل بينها وبين هذه الشقيقة، لكي «تنقذ» زوجها من الغرق في «مستنقع» مشاكلها ومشاكل أبنائها الكثيرة، ونجحت في ذلك فوقعت القطيعة بين زوجها وشقيقته الأرملة الحزينة، وسعدت هي باستئثارها به لنفسه ولأطفالها؛ فلم تمض سنوات قليلة، حتى رحل هو الآخر عن الحياة، ووجدت الزوجة التي كرهت اهتمام زوجها بأخته بعد ترملها نفسها

تعيش ظروفها الإنسانية القاسية نفسها.. وتألمت غاية الألم حين استشعرت من زوجة شقيقها نفس الجفاء، الذي أبدته هي تجاه شقيقة زوجها ونفس محاولاتها لإبعاد شقيقها عنها؛ حتى لا يغرق في «المستنقع» نفسه، ويوجه بعض اهتمامه لها ولأبنائها، فأدركت لأول مرة عمق احتياج من كانت في مثل ظروفها إلى اهتمام ذويه بأمره ومساندتهم له، ولم تجد من يقف إلى جوارها بالعطف والمساندة النفسية، سوى شقيقة زوجها الراحل التي سبقتها من قبل إلى تجرع الكأس نفسها، والتي جفتها هي، وأبعدت زوجها عنها حين كانت في أشد الحاجة إليه.

فهل تريد هذه الزوجة الشابة ألا تحصن نفسها ضد غدر الأيام بمثل هذا الخيار القاسي، الذي تضع زوجها الآن أمامه؟

وهل ترغب حقا في ألا تتفهم عمق احتياجكم الإنساني والعاطفي لوجود زوجها في حياتكم، بغير أن ينقص ذلك شيئا من حقوقها لديه، إلا بعد أن تختبرها الحياة اختباراتها القاسية، فتتفهم ما لم تكن تفهم من قبل، وكل شيء حولنا على ما يرام؟

إننى أربأ بها أن تكون ممن لا يقدرون ظروف الآخرين، ولا يترفقون بالتعساء والممتحنين، وأترك لها الخيار.. لأن تضع نفسها بين أصحاب القلوب الحكيمة والفهم الإنساني الذين لا يحاكمون الآخرين بظروفهم الإنسانية المؤلمة ولا يدينونهم بها، أو بين ما لا يرون سوى رغباتهم واحتياجاتهم، ولا يترفقون بأصحاب الظروف الإنسانية، حتى إذا وضعتهم الأقدار في ظروفهم، ذات يوم.. ندموا على ما كان من غرور وضعتهم الدنيا السابق، وجأروا بالشكوى من قسوة القلوب..

وما أحسبها إلا من أهل الرفق والعطف.. وما أنتظر منها إلا أن تبدي بعض الفهم وبعض التقدير لظروف زوجها الإنسانية وظروف أسرته.. وشكرا لها مقدما.. ولك أنت أيضا يا سيدتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الدماء الساخنة

أنا سيدة عمري 28 عاما، لي شقيق يكبرني ومهاجر إلى الخارج وأخ يصغرني يعمل بوظيفة جيدة، وأنا أعمل بإحدى الهيئات الاستثمارية، وأبي وأمي على قيد الحياة والحمد لله..

منذ أربع سنوات، تقدم لخطبتي شاب وسيم وأنيق، ويتمتع بمركز اجتماعي ومستوى مادي عاليين، وله أسلوبه الخاص في اجتذاب الآخرين إليه بالرقة الشديدة والذوق الرفيع في التعامل، ورحبت به بالطبع وتمت خطبتنا في حفل كبير، وبدأت فترة الخطبة فراح خطيبي يتعجل الزواج، مبررا ذلك بحبه الشديد لي.

وخلال هذه الفترة لاحظت أن خطيبي واقع تحت السيطرة الكاملة لأمه لأنه وحيدها، فكانت لا تتركه يأتي لزيارتنا وحده أبدا خلال الخطبة، ولا تدعنا نخرج سويا إلا وهي معنا، كأنما تخشى مني إذا انفردت به أن اغتصبه!

ولكني تجاوزت عن ذلك وعن المشاكل العديدة التي أثارتها بيننا، حينما استشعرت تقاربنا العاطفي، وكلما وقعت مشكلة من هذه المشاكل، طلب مني أبي وأمي فسخ هذه الخطبة، لأنهما لا يستريحان إلى تدخل أمه الشديد في كل شئوننا مما ينذرني بالمتاعب بعد الزواج فضلاً عما لاحظاه عليه هو نفسه من بخل شديد. ولكني تمسكت به وأصررت على إتمام الزواج؛ لأني كنت أتأثر بدموعه في كل مرة يعتذر لي فيها بعد كل مشكلة.

وتم الزفاف في حفل كبير تحمل أبي معظم نفقاته، وسافرنا إلى إحدى المدن الساحلية لنبدأ شهر العسل.. ففوجئت بعد وصولنا إليها بيومين فقط بوالدة زوجي ووالده يلحقان بنا؛ بحجة الاطمئنان على ابنها، فانتهى شهر العسل عمليا بعد يومين، ورجعنا من الأجازة إلى شقتنا.

وبدأت مشاكل من نوع آخر هي مشاكل البخل واللسان السليط والتطاول، ثم ضربني زوجي في ختام شهرنا الأول؛ لأنني أتكلم كثيرا في التليفون والفاتورة ستأتي باهظة، مع أن كل ما في بيتي من طعام وشراب وبقالة وهدايا، لي وله، من خير أبي وأهلي حتى أمواس الحلاقة!

واستمر الحال هكذا بضعة أشهر، وأنا أكتم غيظي، وأزداد نحولاً ثم اكتشفت حملي؛ فحاولت بذل مزيد من الجهد لإنجاح الزواج واستمرار الحياة. ولكن كيف تختفي المشاكل من حياتنا، وهو يقص على أمه كل شيء في حياتنا بالتفصيل؛ حتى ألوان قمصان النوم التي أرتديها.. إلى أن تجاسرت بعد بضعة شهور من زواجنا، ومن اعتمادنا الكلي في حياتنا على أبي وأمي في نفقات البيت، وطالبته بأن ننفق على بيتنا من ماله الخاص أو من مرتبي الذي أسلمه له كاملاً أول كل شهر، ويقول إنه يدخره لنا للمستقبل..

فثار عليّ ثورة عارمة وركلني في بطني بقدمه وسبني بأفظع كلمات السباب، وكانت النتيجة أن تعرضت لنزيف شديد، ونقلت إلى المستشفى، وتعرضت للإجهاض، وجاء هو إلى المستشفى ليبكي بدموع سخينة، ويبدي حزنه وندمه، وبرر لأهلي إجهاضي بأنني أرهق نفسي بالعمل، وأحتاج للراحة، وتكتمت أنا بالطبع سبب الإجهاض الحقيقي عنهم، وعدت معه إلى بيتنا بعد أن وعدني بألا يكرر ما فعله معي مرة أخرى، مهما حدث بيننا من مشاكل، وبأنه سوف يكف عن سبي والتطاول عليّ.

وحملت للمرة الثانية وتمنيت أن يكتمل هذا الحمل؛ فحصلت على أجازة من عملي، ونفذت تعليمات الطبيب بالرقود على ظهري لأطول فترة ممكنة معظم فترة الحمل، ولكن زوجي جن جنونه لانقطاع مرتبي وزاد غضبه وسبابه لي فانفجرت فيه ذات مرة، وطالبته بمبلغ من المال لإجراء بعض التحاليل والاشعات، فطلب مني هو أن أخذ ما أريد من أبي، ورفضت ذلك لأنه زوجي المسؤول عني، وليس فقيرا فاشتعلت المناقشة بيننا، وانهال هو عليّ مرة أخرى بالضرب المبرح حتى سالت الدماء الساخنة من رأسي ووجهي وجسمي وحجبت عني الرؤية، ولم أعد أرى منها شيئا، وفوجئت به بعد ذلك يحبسني ويفصل كل التليفونات، حتى لا أستنجد بأهلي، ثم يغلق باب الشقة ويذهب إلى عمله متأنقا وكأن شيئاً لم يحدث. ووجدت الدماء تغطي وجهي، وأشعر بآلام رهيبة فصرخت بأعلى صوتي، حتى سمعني الجيران والبواب، وحطموا باب الشقة، ونقلوني لأقرب مستشفى فرحت في غيبوبة لم أشعر خلالها بشيء، ثم أفقت فوجدت أنفي مكسورًا، وبعض الغرز تمت خياطتها برأسي، وبعض الكدمات والجروح وتنتشر في جسمي..

أما الجنين فلقد سقط مرة ثانية وتم الإجهاض، كما وجدت حين أفقت من غيبوبتي أهلي حولي والجيران الذين نقلوني للمستشفى، وقد عرف أهلي منهم كل ما حدث، ثم جاء زوجي غاضبا ومتحفزا، لكن هذا التحفز سرعان ما خبا حين تصدى له شقيقي، وهم بأن يضربه فاكتفى بالقول إنني لا أصلح زوجة، وأن لأسرتي كل الشرف لأنه قد تزوج ابنتها.. إلخ.

وانصرف زوجي قبل أن يتصاعد الموقف بينه وبين أهلي أكثر من ذلك، واصحبني أبي من المستشفى بعد فترة العلاج بقميص النوم والروب إلى بيت أسرتي، وبعث لأسرة زوجي، طالبا التفاهم حول الطلاق بالطريق الودي؛ فطلبت أسرة زوجي أن أتنازل عن مؤخر الصداق والنفقة والشبكة وجهازي كله، حتى فستان الزفاف وهدايا الزواج، التي أهداها لي أقاربي وأخي المقيم بالخارج، بل وحتى أيضا عن ملابسي التي تركتها في عش الزوجية غير السعيد، لأنني على حد قول أسرة زوجي «ناشز»، ولا حق لي في شيء.. ويكفيني أنه سوف يتكرم بطلاقي!

ورفضت هذه الشروط الظالمة بالطبع؛ إذ إنني حتى لو تنازلت عن مؤخر الصداق والنفقة، فكيف أقبل التنازل عن أثاثي، الذي اشتراه لي أبي من ماله وعن ملابسي والهدايا.. إلخ؟

وقامت بيننا حرب شعواء في المحاكم، استمرت شهورا سوداء، أصبح خلالها بيتنا الذي لم يعرف الحزن من قبل كئيبا مظلما، ورغم ذلك فلم أدع على هذا الإنسان بالشر أبدا على الرغم من تألمي لمنظر أبي، حين رأيته يبكي من القهر، وهو يصلى حزنا على مصيري، وضيقا بما تعرضنا له من متاعب ومشاكل لا عهد لنا بها من قبل.

إلى أن جاء يوم واتصلت بي إحدى صديقاتي، وأبلغتني بآخر ما كنت أتوقعه بالنسبة لزوجي، وهو أنه قد تعرض لحادث تصادم بشع، كسرت فيه إحدى ساقيه، ورقد في الفراش في حالة يرثى لها.. ووجدت نفسي أبكي بشدة، وشعرت بالحزن الصادق من أجله، لأنني لم أظلمه بقدر ما ظلم هو نفسه، وتمنيت له الشفاء، ثم جاء أهله، وطلبوا مني باكين العودة إليه. ولكني اعتذرت لهم برقة عن عدم استطاعتي ذلك؛ لأنني لن أستطيع إسعاده بعدما حدث بيننا وأكدت لهم أنني أتمنى أن يعوضه الله عني، بمن هي أفضل مني ووعدني أهله بإنهاء إجراءات الطلاق وتسوية كل شيء في هدوء وتم ذلك والحمد لله منذ فترة.

لقد رفضت العودة إليه، ورجوت أهله أن يكرمني بعد كل ما حدث بالطلاق؛ لأنني لم أعد أشعر تجاهه سوى بالشفقة فقط عليه مما أصابه.. أما الحب فلقد مات نهائيا في قلبي تجاهه منذ فترة طويلة، وعند تعرضي للعلقة الدامية الثانية، التي أسالت الدماء الساخنة من كل مكان في جسمي، وأنا أعرف أن الشفقة وحدها لا تصنع السعادة.. وأن أهم شيء في الزواج هو الاحترام المتبادل بين الزوجين وحسن اختيار كل منهما للآخر.

فهل تراني محقة في ذلك وفي رفض العودة إليه مرة أخرى، وأنا لم أعد أحمل له إلا الشفقة فقط؟

لقد تمالكت نفسي أخيرا وتجاوزت مرحلة الحزن.. وخرجت إلى الحياة من جديد، وليس في عقلي من هذه التجربة، سوى أهم دروسها، وهو أن من واجبنا ألا نتجاهل تجارب الكبار ولا نصائحهم لنا، لأن خبرتهم بالحياة أكبر كثيرا من خبرتنا، فهل تؤيدني فيما فعلت خاصة، وأنني على وشك الارتباط مرة أخرى، أم أن لك رأيا آخر؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نعم يا سيدتي، أوافقك على اختيارك لعدم العودة إليه بعد ما جرى بينكما من أهوال، فقدت خلالها حملك مرتين، وليس مرة واحدة؛ ذلك أن من لا يعرف بالدماء الساخنة والإجهاض المتكرر والضرب الوحشي والسباب الفاحش من لا يصلحون له، فلن يعرف أبدا من يصلحون له، ولسوف يظل بقية حياته ريشة في مهب الريح يحملها هنا أو هناك بغير دور للإرادة العاقلة في ذلك، ولسوف يظل أيضا نهبا للتخبط وتكرار الأخطاء إلى ما لا نهاية.

وليس لهذا السبب وحده، أوافقك على اختيارك، وإنما أيضا لأن زوجك - وهو الأهم - قد سحب كل رصيده العاطفي السابق لفي قلبك وبدده في الهواء، فإذا خلا القلب من الحب الذي يغفر الخطايا والذنوب لمن أحب، فأي دافع آخر إذن يبرر لك العودة إلى زوجك السابق، لقد كانت التجربة كلها تحمل منذ البداية بذور الفشل، وتعاميت بدافع الحب وحده عن رؤيتها، وعن الاستجابة لنصيحة الأهل لك بفك هذا الارتباط، قبل أن يبدأ.

إن القسوة المتكررة تقتل بذور الحب في تربة القلب مع الأيام، فلا تلبث أزهاره أن تجف وتتساقط، ولا يبقى فيه بعد ذلك سوى المرارة المترسبة، فإذا محا الزمن المرارات القديمة بطول العهد، فليس من المحتمل في أغلب الأحيان أن ينبت القلب بذوره مرة أخرى، لمن قسوا عليه من قبل بهذه الوحشية.

ولا شك أن فقد جنينين بسبب تعرض الزوجة للضرب الهمجي من زوجها أثناء الحمل، ليس مما يمكن أن يندمل جرحه الغائر في قلب مثل هذه الزوجة في المدى المنظور، فينبض بالحب من جديد لمن اغتال هذين الجنينين في رحم أمهما

لقد أحسنت صنعا باعتذارك عن عدم العودة لزوجك السابق مرة أخرى، كما أنك محقة أيضا في أن إحساس الشفقة وحده لا يصلح أساسًا للحب أو السعادة، بل إن الروائي الإيطالي الشهير ألبرتو مورافيا، يقول لنا على لسان بطلة رواية «امرأة من روما» أن الشفقة هي ألد أعداء الحب؛ لأن المرأة حتى لو كرهت رجلاً فقد يراود الأمل هذا الرجل في أن تحبه ذات يوم، أما إذا كان ما تشعر به تجاهه هو الشفقة، فلا أمل له في أن تتحول الشفقة إلى حب ذات يوم!

لهذا.. فلا لوم عليك في رفضك العودة إليه، بعد أن تقطعت كل الخيوط التي ربطت بينكما من قبل، ومات الحب على مذبح القسوة والضرب الوحشي والسباب الفاحش والمنطق المادي.. والبخل.. وحدة الطبع والغضب الجنوني والاندفاع الطائش، حتى ولو كنت قد شاركته أنت صفة الاندفاع وسرعة التصادم.. وكل ذلك من أسباب التنابذ والاختلاف والصراع، ومما يفرق ولا يجمع بين زوجين شابين خاصة بعد تبخر الحب العارض غير الحقيقي، الذي شعرت به تجاهه لبعض الوقت.

فإذا كانت ساقه المكسورة، سوف ترجع إلى طبيعتها بعد حين بإذن الله.. فليس من المنتظر أن تتغير شخصيته بكل سماتها من النقيض إلى النقيض؛ حتى ولو كان قبوله في النهاية لطلاقك، يعد مؤشرا إيجابيا لبعض التغير في التفكير. وغاية القول هي أن كلا منكما لم يكن شريك الحياة الأنسب للآخر، ولا الأقدر على التواؤم والتكيف معه، وأن من الخير لكليكما فعلاً أن يبحث عن سعادته في طريق مختلف.

أما نصيحتك الدرامية الأخيرة للفتيات والشباب بألا يتجاهلوا خبرة الكبار ونصائحهم؛ لأنهم أعرف منهم بالحياة، فهي نصيحة حكيمة وصادقة ومخلصة. ولكن لماذا لا نسمعها من بعض الشباب أبدا، إلا بعد أن تسيل للأسف دماؤهم الساخنة بسبب تعاميهم من قبل عن حكمة الكبار ونصيحتهم المخلصة لهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

التعليقات الجارحة

أنا سيدة في العقد الخامس من العمر، تزوجت منذ ثلاثين عاما وأنجبت أربع بنات كبراهن الآن في الثامنة والعشرين وصغراهن في الحادية والعشرين من عمرها، ولقد عشت حياة سعيدة مع زوجي الذي كان يشغل منصبا مرموقا بإحدى شركات الاستثمار، وزوجنا معا بناتنا الثلاث ثم رحل زوجي عن الحياة في حادث أليم منذ 5 سنوات، تاركا صغرى البنات وهي في السادسة عشرة من عمرها. وبعد رحيل الأب بفترة قصيرة، بدأت ابنتي الصغرى ترتدي الملابس التي ترتديها بنات هذه الأيام، وهي الملابس التي تكشف عن مفاتن الجسم أو الملابس الخليعة التي تتقيد بخطوط الموضة بمعنى أصح، ولم أعترض على ذلك في حينه للأسف لسببين: الأول أنني كنت أقول لنفسي ما يقوله كل الآباء والأمهات لأنفسهن في مثل هذه الظروف من أنها صغيرة وطائشة وسوف تتعقل مع الأيام وتحذو حذو شقيقاتها في تدينهن وملابسهن المحتشمة ذات يوم قريب.. وبعد أن تنتهي فترة مراهقتها وترجع إلى طبيعتها السوية.

والسبب الثاني هو أنني قد تحسست من أن أتشدد معها، فتقول ابنتي إنني قد أصبحت اتحكم فيها بعد وفاة والدها وتشكو من ذلك، وظل الحال على هذا النحو حوالي عامين، ونحن نعيش حياتنا في هدوء، إلى أن فوجئت بها ترجع إلى مسكننا حيث نقيم في المعادي ذات اصيل وهي تبكي وفي حالة هيستيرية وملابسها ممزقة، وتحكي لي من خلال شهقاتها أن مجموعة من الشباب قد هجموا عليها وازالوا عذريتها في وحشية رهيبة! وبعد الصدمة الأولى التي شلت تفكيري تماما.. وبعد الانهيار والصراخ والبكاء قمنا باتخاذ الاجراء المتبع في مثل هذه الظروف، وأبلغنا قسم الشرطة الذي نتبعه.. وليتني كنت حاضرة الذهن ولم أفعل.. تسألني لماذا؟ فأقول لك لأننا ما أن فعلنا ذلك حتى أصبحت سيرتنا على كل لسان في الحي الذي نقيم فيه وترددت قصتنا على الفور في كل ارجاء الحي الكبير، وفوجئت بأن معظم التعليقات التي ترددت حول هذا الأمر ليست متعاطفة معنا ولا حتى محايدة، وإنما لدهشتي معادية وجارحة لمشاعرنا نحن الضحية المجني عليها.. أما هذه التعليقات فلقد كان مفادها جميعا هو أن ابنتي تستحق ما جرى لها.. وأنه لولا أنها تفعل بنفسها ما تفعل لما جرى لها ما جرى.. ولولا أن أمها كانت موافقة على ما تفعله لما تعرضت ابنتها لما تعرضت له الخ!! وهكذا تضاعفت جراحنا يا سيدي بدلا من أن تضمد ووجدنا أنفسنا غرباء وسط من نعيش بينهم، ولست أروي لك هذه القصة لكي أبكي على اللبن المسكوب، والذي لا يفيد البكاء شيئا في استعادته، وانما أكتبها لك لكي أنبه الآباء والأمهات الذين يقرأون بابك المفضل إلى الخطر الفادح الذي يتهدد بناتهم، حين تتهاون معهن الأمهات في ملابسهن المثيرة لغرائز الشباب، بدعوى أنها فترة ولن تلبث أن تمر أو بدعوى أنها فترة المراهقة التي لن تطول، كما فعلت أنا مع ابنتي، فلقد تعلمت بالدم والحسرة الآن، أن هذا التبرير خاطئ من أساسه ولا يؤدي إلا الى الكارثة.. وإذا كنت قد شعرت بآلام خنجر مسموم يطعن قلبي حين جرى لابنتي ما جرى،

فلقد شعرت بأضعاف أضعاف ذلك من الألم حين لم استشعر عطفا من أحد ولا تعاطفا معنا، فحتى هؤلاء الذين منعهم أدبهم من إيذاء مشاعرنا بكلمة معادية.. كانت عيونهم تنطق بالإحساس باننا المسؤولون عما حدث لابنتي قبل كل شيء، وقد لمست هذا الاحساس للأسف في قسم الشرطة.. ولدى الجيران ولدى من نتعامل معهم من أصحاب المحلات المجاورة.. حتى تحولت الحياة بالنسبة لنا إلى جحيم، فليؤد إذن كل أب وكل أم واجبه تجاه بناته.. ولا يكررن أحد خطئي مع ابنتي خاصة ونحن نعيش في ظل هذا الواقع الذي لا يتحرك أحد لتغييره سواء من المسؤولين أو كبار العلماء بالأزهر أو رجال الكنيسة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ألاحظ في سلوكنا الاجتماعي ظاهرة «سادية» عجيبة تطفو على سطح معاملاتنا من حين لآخر، هي ميل البعض منا لإلقاء اللوم دائما على الضحية بأكثر مما قد نفعل أحيانا مع الجاني نفسه! فمن يتعرض للأذى نبادره بدلا من الأسى له والتعاطف معه - باللوم والاتهام بأنه لم يحترس بدرجة كافية مما تعرض له من أذى.. كأنما نستعيض بذلك عما ينبغي لنا أن نتخذه من موقف الادانة للجاني، أو كأنما لا يكفي الضحية ما أصابها من أذى، فنضاعفه نحن عليها باللوم الصريح أو الصامت لها، مع أن هذا اللوم لا يعيد حقا مسلوبا ولا يسهم في عقاب الجاني، ولا يثمر أي شيء سوى ترسيخ المرارة في نفس الضحية، وافساد العلاقات الإنسانية.

إن الضحية تظل ضحية دائما حتى ولو كانت قد أسهمت بسلوكها غير المتحفظ في إغراء الآخرين بالتحرش بها، والجاني يظل جانيا حتى ولو كان قد تلقى بعض الاثارة التي أغوته بارتكاب جريمته من جانب الضحية، والجريمة نفسها تظل جريمة مستنكرة وبشعة بكل المقاييس مهما أحاط بارتكابها من ظروف ومغريات.

ولا يغير ذلك شيئا من إيماننا الثابت، بأن المظهر الجاد المحتشم للفتاة هو أفضل حماية لها من عدوان المعتدين، ولا من إيماننا بصحة ما يقوله الكاتب الأمريكي جيمس روستون، من أن خطر القنبلة الجنسية في المجتمعات المفتوحة، قد يصبح في النهاية أكبر من خطر القنبلة الذرية، ولا عجب في ذلك وكتاب الغرب أنفسهم هم الذين يقولون لنا الآن أن هناك علاقة طردية بين اتجاه المجتمعات إلى العري والاثارة، وبين حوادث الاعتداء على الفتيات في هذه المجتمعات نفسها التي يطلقون العنان فيها للحرية الجنسية، حتى لقد ذكرت احصائية حديثة أنه تقع الآن في أمريكا بلد الحرية الجنسية 240 حادث اغتصاب كل يوم و 7200 ألف حادث كل شهر، و 86400 حادث كل سنة، ولا تفسير لهذه الأرقام الرهيبة لديهم إلا اطلاق العنان للشهوات بلا رادع من دين أو قيم روحية.. وإلا جو العري السائد والملابس المتهتكة واثارة الغرائز والخمور والمخدرات!

فهل أدركنا اذن أهمية ضبط الغرائز وردها إلى عقالها بالقيم الدينية والاخلاقية والسلوكيات الاجتماعية المحافظة التي تعين على العفاف وتحفظ الحرمات؟ لقد أطلق العرب منذ قديم الزمان على الزوجة «حرما» اشارة إلى ما للعرض من قداسة، وما لصونه وحمايته من حقوق على من يتحمل أمانة المسؤولية عنه

وفي ذلك يا سيدتي فإني أقول لك إنني اختلف معك في أمرين، أولها هو ما تقولين من أن «كل» الآباء والأمهات يبررون تساهلهم مع بناتهم فيها يرتدين من ملابس مثيرة للغرائز وكاشفة للمفاتن، بانها «مرحلة» من العمر ولن تطول ثم لا تلبث الفتيات بعدها أن يعدن إلى جادة الالتزام والاحتشام، وثانيها انك قد تساهلت مع ابنتك فيما اختارت لنفسها من مظهر غير لائق، تحسسا من أن تعتبر ذلك «تحكما» في حياتها بعد رحيل أبيها عن الحياة، والحق هو أن تقديرك في كلا الأمرين لم يكن صائبا ولا حكيما، فليس كل الآباء والأمهات يتساهلون مع بناتهم في مرحلة المراهقة انتظارا لبلوغهن سن الرشد والحكمة، بل إن الأصح هو أنهم قد يتشددون في رقابتهن والاشراف على سلوكهن في هذه المرحلة الحرجة من العمر التي تتطلب من الآباء والامهات مضاعفة الاهتمام ببناتهم إلى ان يعبرنها بسلام وبأقل الخسائر النفسية.

كما أن تبريرك للتساهل معها بدعوى التحسس من أن تشكو من انفرادك بالتحكم في حياتها بعد أبيها، لا يعفيك للأسف كذلك من المسؤولية عن تفريطك في حمايتها من نفسها قبل حمايتها من الآخرين، ولسبب بديهي ولا يقبل الجدال، هو أن حدود الله أولى دائما بالرعاية من أي اعتبارات أخرى، فنحن حين نؤدي واجبنا تجاه أبنائنا ونصدع بتعاليم السماء فيما تأمرنا به وتنهانا عنه معهم، فإننا لا ننتظر جوائزنا من هؤلاء الأبناء انفسهم وانما ممن يملك وحده منح الجوائز سبحانه وتعالى، ولن يغنينا أن يرضى عنا أبناؤنا لتساهلنا معهم فيها حرم الله، شيئا في حسابنا مع خالقنا عما فرطنا فيه من نواهي الدين مع من نتحمل عنهم أمانة المسؤولية أمام الله والمجتمع والناس.. وليس أمامنا مجال للاختيار بين غضب السماء وبين رضا الأبناء المؤقت عنا.. لأن الاختيار محسوم منذ البداية، ولأننا لا نبوء غالبا إذا استجدينا رضا الأبناء بالتجاوز عن حدود الله إلا سخط السماء.. ثم سخط هؤلاء الأبناء أنفسهم حين يعقلون أمرهم ويدفعون ثمن أخطائهم ويبحثون عمن يلومونه عما أصابهم من سوء الجزاء في الدنيا.. فلا يجدون من يلقون عليه تبعة ذلك سوى آبائهم وأمهاتهم الذين ضعفوا عن أن يردوهم عن غيهم في الوقت المناسب! ولهذا نسمع غالبا من هؤلاء الأبناء تحسرهم بعد فوات الأوان، لأن آباءهم وأمهاتهم لم يردعوهم عن الخطأ - ولو بالقوة - في الوقت المناسب.

فإذا كان الأمر كذلك في كلا الحالين، فهل يتردد عاقل في اختيار الالتزام بتعاليم السماء، حتى ولو لم يرض عن ذلك الأبناء لبعض الوقت أو في حمأة الطيش وضعف الادراك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الثمرة المرة

حين يتأمل الإنسان في ثمرة نضرة جميلة النظر والتكوين، فإنه يتوقع دائما أن تكون حلوة المذاق.. ولكنه قد يفاجأ بأنها مرة شديدة المرارة فينبذها ويحاول أن يتخلص من تلك المرارة التي قد تسبب له بعض الألم. وفي هذا الكتاب، يعرض لنا الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع بعض قصص الحياة التي صادفته أو عرضها أصحابها عليه طلبا للحلول والنصائح التي تساعدهم على التخلص من آلام المحن التي أبلتهم بها تجارب الحياة.

وهنا يعرض لنا المؤلف الكبير جانبا من الفلسفة الإنسانية التي تدور حول معنى الألم وضرورة تحمله حتى يبرأ الإنسان من هذا الألم ويتم له الشفاء.. تماما مثلما يجب على الإنسان أن يتحمل آلام جراح الجسد حتى تلتئم وتتلاشى الألآم بالتدريج إلى أن تزول في نهاية الأمر.. ويقول المؤلف في مقدمة هذا الكتاب: " إن الألم حقيقة إنسانية من حقائق الحياة، ولا سبيل أمامنا لإنكار هذه الحقيقة أو رفضها.. " ويجب أن ندرب أنفسنا على ترويض هذا الألم وسجنه في قفص من الصبر والفهم وقوة الإرادة والتحمل إلى أن يزول ويتلاشى وينصرف عنا بسلام ونستعيد عافيتنا منه بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

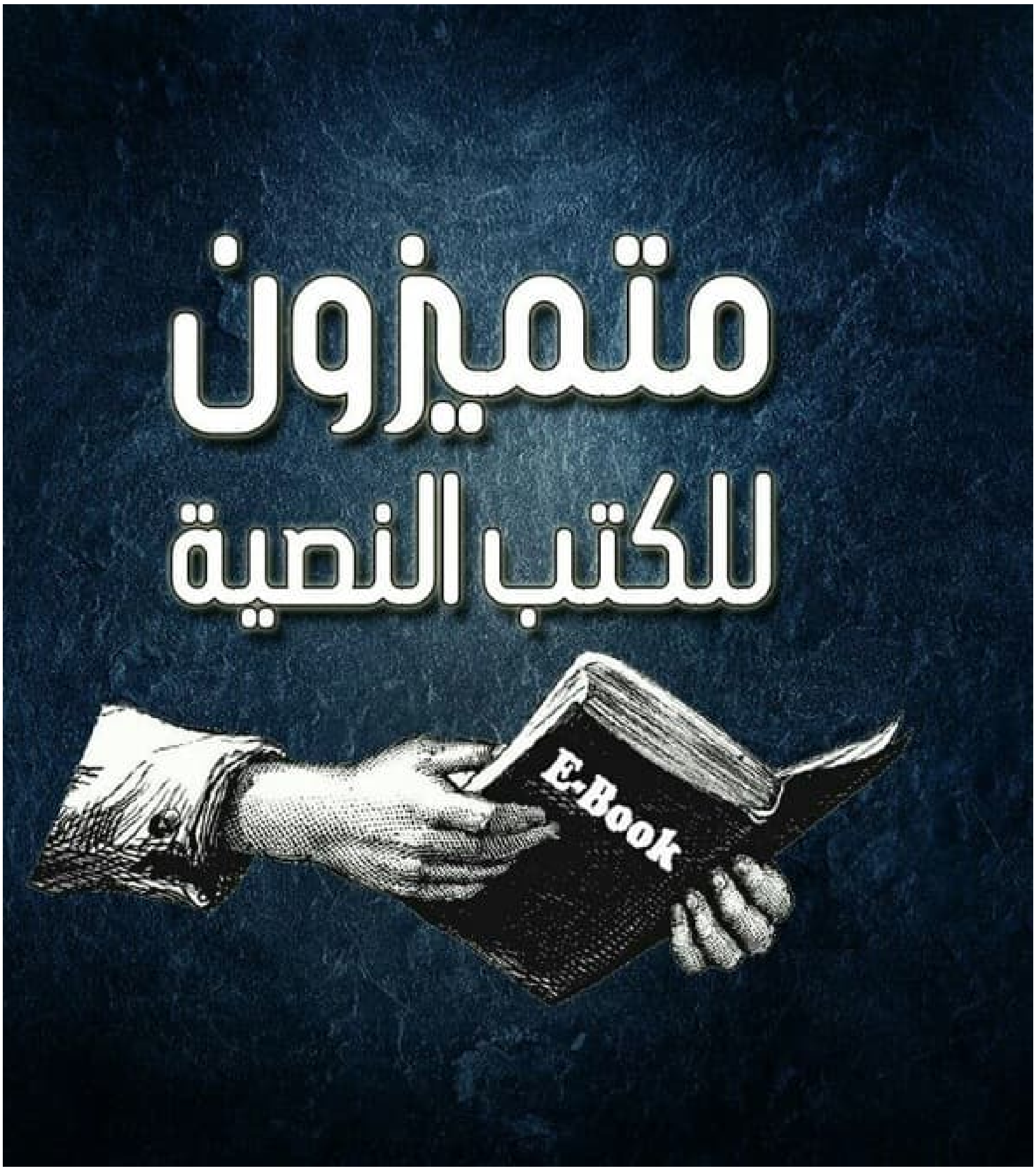
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

المقدمـة

الثمرة المـُرَّة

العيوب الخطيرة

الإشارة المنتظرة

البداية الثانية

نزوات الرجال

طائر الحرمان

نظرة الاستعلاء

ميراث الحقد

الآثار الجانبية

القصة الشائعة

الأمـــــاني

الميراث المعنوي

الحرب الشعواء

طعم النجـاح

الابتسامة المتحجرة

رباط الـــدم

الموعد المرتقب

النقطة البيضاء

السلك المشدود

الدماء الساخنة

التعليقات الجارحة

الثمرة المرة

الفهرس: